مجلة البيان ، السنة العاشرة ، العدد 92 ، ربيع الآخر 1416هـ / سبتمبر 1995م

كلمة صغيرة

خمسون عاماً من الغم

هيئة الأمم المتحدة هيئة عالمية ، يفترض أن تكون لخدمة السلام العالمي
ونصرة المظلومين وإغاثة الملهوفين ، غير أن خمسين عاماً مرت منذ قيامها لم يكن
للمسلمين من خدماتها أي نصيب ؛ فقد فشلت في حل المشكلة الفلسطينية ، وخذلت
المسلمين في كل القضايا الإسلامية وعلى رأسها (البوسنة والهرسك) و (الشيشان)
و(كشمير) و (بورما) .. وغيرها وغيرها ، حيث تتحول تلك القضايا بمباركة أكابرها
إلى (قضايا داخلية) حتى وإن دُكّت المدن ، أو شُرّد الأهالي ، ومات الناس جوعاً ،
بل حتى لو انتهكت ما يسمونه بالمناطق (الآمنة) ، بينما في القضايا الأخرى تعد
العدة للتدخل لحسمها بشكل عجيب ، كما حصل في (هايتي) ، و (رواندا) ...

ستبقى هذه الهيئة العتيدة سلبية في مواقفها مع المسلمين وقضاياهم وبخاصة
عندما تولى دفتها « بطرس » الذي يبدو أن (أرثوذكسيته !) تغلبت على
(إنسانيته !) بشكل مقزز يبعث على الغثيان .

إن الهيئة العالمية بدأت في الآونة الأخيرة تبحث في قضايا ثقافية وفكرية
حول السكان والتنمية والمرأة .. وغيرها ، وكأنها بصدد مشروع علماني (كبير)
ضد الثوابت الدينية الإسلامية ، وليتها واجهت مخازي (التطهير العرقي) وقامت
بمحاكمة (مجرمي الحروب) وناصرت (حق الشعوب في تقرير مصيرها) كما تدعي!

فحتى متى يصبر المسلمون على تواطئها وعدم مبالاتها بقضاياهم ؟ أم على
قلوب أقفالها .. ؟ !

افتتاحية العدد

من الأندلس .. إلى البوسنة

سقطت البوسنة الشرقية ، وسقطت معها مسلّمات كثيرة ، وارتفعت على دماء
وأشلاء الضحايا وبقايا (سربنتسا) و (جيبا) لافتات ضخمة ، يهون أمامها ذعر عيون
الأطفال وأنهار الدموع المتساقطة من العفيفات المغتصبات وأرواح الشهداء الذين
سقطوا وهم يدافعون عن دينهم وعرضهم ومالهم ، وظهورهم مكشوفة ، وأجسادهم
عارية ، يكفي أن هذه الظهور المكشوفة والسواعد المقاتلة حتى آخر طلقة قد كشفت
للجميع حقائق مهمة :

الأولى : أن المهانة والعجز الذي يلف العالم الإسلامي حيال قضاياه قد أصبح
القاعدة التي لا شذوذ عنها ، وصدق الشاعر :

كم حرة صرخت من تحت غاصبها فجاءها المنقذان العي والصمم

لقد قبلت الأمة الإسلامية من أدناها إلى أقصاها عيشة الذلّ والهوان ،
ورضيت بالدّنيّة ، واستسلمت لجلادها وغاصبها ، وركعت تحت قدميه ، وكأنّها
تستحثه لمزيد من الاستبداد والتسلط .

قطيع يساق إلى حتفه ويمضي ويهتف للسائقين

والثانية : أن ترسانة الغرب الوحشية وجيوشه العابرة للقارات تختار ضحاياها
بعناية فائقة ، فهي تصل إلى أقصى البراري ، وتتغاضى عن الجار البوسني
(المسلم) القاطن بين ظهرانيها .

والثالثة : أن ثورة الاتصالات الإعلامية والفضائية في قمتها اليوم نجحت في
امتصاص المأساة ، وتقديمها لجمهور المشاهدين والقراء كمسلسل شيق يثير الانتباه ، ينتصر فيه الشر على الخير دوماً .

وأخيراً : أن حرب التخوم والأطراف التي يشنها الغرب على نقاط التماس مع
العالم الإسلامي مرشحة للتصاعد في ظل تآمر الغرب والشرق ، وبمباركة من الأمم
المتحدة التي يأبى البابا » بطرس « إلا أن تكون (فاتيكان !) القرن المقبل حين
يخوض قداسته حرب الصليب القادمة ! !

» بطرس غالي « لم يسمع حتماً بـ » بشير إيماموفيش « .. فبشير كهل

بوسني ، غادر (جيبا) بعد سقوطها في يد الصرب ، ونقل للعالم ما قاله الجنرال
الأرثوذكسي » راتكو ملاديتش « لجموع المسلمين فيها ... لقد قال لهم : » لن
يستطيع الله ... ولا الأمم المتحدة أن ينقذوكم ... إنني أنا ربكم ! ! « [*] تعالى الله
وتقدست أسماؤه .
أيها الـ « بطرس « ... جدك أرادها مذبحة للأحرار من أبناء الكنانة ،
وركب خيل المستعمر الإنجليزي ... وأنت تركب خيل الملاحدة الصرب ، الذين
رسمت لهم منظمتك ومبعوثوك خط السير نحو (جيبا) التي أحرقوها ، كما هو دأب
البرابرة من أبناء الصليب ...
جدك نال جزاءه ... وأنت ، وإن هربت من واجهة الأحداث وخفتت عنك
الأضواء التي تعشقها ، فإن دعاء المسلمين في كل مكان سيظل يلاحقك حتى تلاقي
ركاب جدك الخائن ، فدعوات المظلومين هي الجند الذي لا يغلب ، وليس بينها
وبين الله حجاب !
» بشير إيماموفيش « لن يجد من المسلمين سوى الهمهمات
والحوقلة الباردة ، فإخوانه غارقون في لهوهم وعبثهم وخلافاتهم
الصغيرة ومعاركهم المفتعلة يعيدون
كتابة تاريخ الأندلس ، ويساهمون في احتلال الفرنجة ل (سربنتسا) بعد (طليطلة)
و (الحمراء) و (قرطبة) و (غرناطة) ...
عالم من بليون مسلم ، وخمسين دولة ، وجيوش جرارة ، وموارد هائلة ..
يعتذر بالعجز ، ويتدثر بقلة الحيلة وضعف الهمة ، حتى تدق الحملة القادمة أبوابه
في ناحية أخرى ونقطة تماس جديدة ... أي خزي وأي مهانة هذه .. ؟ !
المعلقون الألمان يربطون بين حرب (البوسنة) ومجزرة (الشيشان) وما يتم
طبخه للمسلمين في (تتارستان) ... ويطلقون عليها حرب التخوم ؛ حيث عالم غربي
متفوق ومنتشٍ بانتصاره ، أمام مسلمين ضعفاء متخاذلين ، يصورهم عدوهم على
أنهم الخطر العالمي الأول ...
نعم .. المناطق الآمنة كانت من صنع الدول الغربية وبرعاية الأمم المتحدة ،

والدور القادم على » ملاذات آمنة « أخرى في حالة نجاح الخطة الحالية وهي
ناجحة بكل المقاييس وهنا : لن تكون حرب تخوم وأطراف ؛ فالتجربة الصليبية
القديمة والصهيونية الحالية تجعلنا نوقن أنها ستكون موجهة إلى العمق ... !
أيها المجاهدون البوسنيون .. أيها الشيوخ والأطفال .. أيتها النساء
المسلمات .. لا تعلقوا قلوبكم بألف مليون غثاء ، ولكن توجهوا إلى من
بيده ملكوت السموات والأرض ، تقربوا إلى الله شبراً يتقرب إليكم ذراعاً ، انصروه ينصركم
﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : 40] .
أيها البليون عاجز ... ومتعاجز ... لقد ظللتم أعواماً عديدة تنتظرون الفرج
من عدوكم والنصر المستجلب من البيت الأبيض ، فهلا أفقتم على تصريحات قيادته
التي قالت بالصوت العالي : إنها ستصوت » بالفيتو « ضد مشروع حق الضحية
في قتال الجلاد ؛ لأن دماء ومدن وحضارات ومساجد البوسنة الشهيدة لا تساوي
شيئاً أمام احتمال تعكير أجواء التحالف الدولي (الصليبي) !
أيها البليون عاجز .. ومتعاجز .. لقد بحّت أصواتكم ، وجفّت أقلامكم ، من
الشجب والاستنكار في المحافل الدولية .. أفلم تدركوا بعد أنّ القبعات الزرقاء
(الأممية !) التي تستظلون بظلها ، وتحتمون بحماها ، هي أحد أسباب المأساة ، بعد
أن ثبت للجميع خيانتها وتواطؤها مع إخوانهم الصرب .. ؟ !
لقد عبر رئيس وزراء البوسنة عن خيبة أمله في الدور الذي لعبته الأمم
المتحدة خلال الأزمة ، قائلاً : » إنّ منظمة الأمم المتحدة عار على مجتمعنا
العصري .. لقد سلبت منّا الحق الأساسي في الحياة ، وحق الدفاع عن أنفسنا .. ! « .
وصدق الشاعر بقوله :
أبلغ شهاباً وخير القول أصدقه إن الكتائب لا يهزمن بالكتب
عندما يصل العجز إلى هذه الدرجة .. لابد للإيمان الصادق من هبّة تمحو
وصمة العار وبصمات الخذلان التي يصنعها بعض المرجفين بأيديهم .. وصدق
الملك الحق حينما قال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ

الكَافِرُونَ إلاَّ فِي غُرُورٍ ﴿ [الملك : 20] .

(*) حسب رواية مجلة (نيوزويك) الأمريكية .

دراسات شرعية

اتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) في ضوء الوحيين
حقيقته ، منزلته ، مظاهره ، عوائقه
(2)

بقلم : فيصل بن علي البعداني

بدأ الكاتب في الحلقة الأولى مقاله بتعريف الاتباع ، ثم تحدث عن علاقة
الاتباع بالزمان والمكان ، وثنّى بالحديث عن أفعال النبي من حيث التأسي ، ثم بين
قواعد مهمة في الاتباع ، وأنهى كلامه ببيان مظاهر الاتباع ، ويواصل الكاتب في
هذه الحلقة إيضاح جوانب أخرى من الموضوع .

- البيان -

من الوسائل المعينة على الاتباع :

الوسائل المعينة على الاتباع كثيرة ، أهمها :

1- تقوى الله (عز وجل) والخوف منه : وذلك لأن من اتقى الله (عز وجل)
وخافه : جعل له فرقاناً يميز به بين الحق والباطل وبين النور والظلمة ؛ فكان ذلك
سبب نجاته وسعادته في الدنيا والآخرة ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا إن
تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ... ﴾ [الأنفال : 29] .

2- الإخلاص لله ، والتجرد في طلب الحق : لا يتوقف البحث عن الحق
وتطلبه على الحرص على معرفته وإدراكه فقط ، بل لابد مع ذلك من أمر قلبي هو
التجرد ، والحرص على سلامة القصد ، والسلامة من الجهل والهوى والظلم ، ولا
يكون ذلك إلا بالإخلاص لله (تعالى) .

وهذا الأمر له تعلق بتنقية النفوس من الأهواء والشوائب وتزكيتها ؛ لأن العبد
كلما سعى في تنقية نفسه وتزكيتها وإلزامها بطاعة الله (تعالى) وترك معصيته
ظاهراً وباطناً ، كلما ازداد قبوله للحق وإقباله عليه ؛ يقول ابن تيمية : (وكذلك من
أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعاً لهواه ، فإن ذلك يورثه الجهل والضلال
حتى يعمي قلبه عن الحق الواضح ، كما قال (تعالى) : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ

قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ [الصف : 5] ..) [1] ، والتجرد والإخلاص
معينان للعبد على الرجوع عن البدع والأخطاء متى وقع فيها ، وقد حصل ذلك من
أعيان كبار في علم الكلام والفلسفة وغير ذلك ، كأبي الحسن الأشعري ، والجويني ،
والغزالي ، والفخر الرازي ... وغيرهم كثير .

3- اللجوء والتضرع إلى الله (عز وجل) وإظهار الافتقار له : كان رسول الله
كثيراً ما يدعو عند الصلاة من الليل : (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر
السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه
يختلفون ، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط
مستقيم) [2].

وكان من دعائه أيضاً : (اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني ،
وزدني علماً) [3] . وأيضاً : (اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضَل ، أو أزل أو
أُزل ...) [4] .

وقد أمر الله (تعالى) عباده بدعائه والتضرع بين يديه ، فقال (عز وجل) :
 وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إنَّ الَذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ (غافر : 60) وأخبر النبي أن من لم يسأل الله (تعالى) ويظهر الافتقار
والحاجة إليه فإنه يغضب عليه ، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة (رضي الله
عنه) قال : (قال رسول الله : من لم يسأل الله يغضب عليه) [5] .

4- تعلم الأحكام الشرعية : وذلك لأن الإسلام دين مبني على الوحي ،
والوحي لا يدرك إلا بالتعلم ، وبالتالي : فلا وسيلة للعمل بأحكام الإسلام واتباع النبي
إلا عن طريق التعلم ، ولذا : قال الإمام البخاري في صحيحه : (باب العلم قبل
القول والعمل ، لقول الله (تعالى) : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ ، فبدأ بالعلم) [6] .

وكان أول ما أُنْزِل من القرآن الكريم اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
[العلق : 1] والقراءة أداة للتعلم .

5- اتباع طريقة السلف في العلم والعمل : بيّن النبي أن خير قرون هذه الأمة
وأفضلها : أقربها إليه ، فقال : (خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين
يلونهم ..) [7] وأوضح في حديث الافتراق أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين ملة ، كلها في النار إلا ملة واحدة ، قيل : من هي يا رسول الله ؟ قال : (ما أنا عليه وأصحابي) [8] .
وما أحسن قول عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) حيث قال : (من كان
مستنّاً فليستن بمن قد مات ؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة) [9] .
6- الصحبة الصالحة : صحبة أهل السنة والجماعة الملتزمين بما كان عليه
رسول الله وصحابته من أعظم الأسباب التي تعين على الاتباع والاستمساك بالحق ؛
قال رسول الله : (الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل) [10] . وسبب
ذلك : أن الخليل يحمل صاحبه على ما هو عليه ، فإن كان صاحب سنة واتباع
حمله على ذلك ، وإن كان صاحب بدعة وفسوق حمله على ذلك ، ولذا : قال رسول
الله : (مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك : إما
أن يُحذِيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير : إما أن
يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة) [11] .
ويقول أبو قلابة : (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ؛ فإني لا آمن أن
يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما تعرفون) [12] .
7- تدبّر النصوص الصحيحة : القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة هما
مصدر تلقي الحق والهدى ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي
هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] وقال : (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله
وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض) [13] ، ولقد تكفل الله (تعالى) بحفظ
نصوص كتابه من أن يدخلها تحريف أو تبديل ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] ، ويتضمن ذلك حفظ سنة النبي التي على
الرغم مما دخلها من أحاديث ضعيفة وموضوعة ، إلا أن الله (تعالى) هيأ لها أئمة

نذروا أنفسهم وأعمارهم في خدمتها وتمييز صحيحها من ضعيفها وموضوعها ، ولذا : فإنه لابد للحريص على الاتباع الحق للنبي من الحرص على صحة النصوص
التي يعمل بها ، والقيام بفهمها وتدبرها ، ومن ثم : العمل بموجبها فعلاً وتركاً .

والعائد من تدبر النصوص النبوية الصحيحة كالعائد من تدبر النصوص
القرآنية ؛ لأن كلاً منهما مصدر للأحكام وطريق للاعتصام والأمن من الزيغ
والضلال عن الحق .

من عوائق الاتباع :

هناك عوائق كثيرة تمنع العبد من الاتباع الصحيح للنبي ، من أبرزها :

1- الجهل : الجهل هو أعظم عوائق الاتباع ، بل هو أعظم أسباب الوقوع
في المحرمات جميعها من كفر وبدع ومعاصٍ [14] سواء أكان الجهل جهلاً
بالنصوص بعدم الاطلاع عليها ، أو كان جهلاً بمنزلتها في الدين وكون التقدمة لها
وبقية المصادر تبعاً لها ، أو كان جهلاً بمقاصد الشريعة وقواعد العلوم وأصولها :
كالمطلق والمقيد ، والعام والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، والمجمل والمبين [15]،
ونظراً لخطورة الجهل الكبيرة : نجد القرآن الكريم والسنة الصحيحة حافلين
بالنصوص التي تحذر من الجهل وتبين خطورته ، وتحث على العلم وتبين فضله ،
ومنها :

قال الله (تعالى) : ﴿ قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ
وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ
تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 33] .

وقال (عز وجل) : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] يقول سيد قطب : (والعقيدة
الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة ، فلا يقوم شيء فيها على الظن أو
الوهم أو الشبهة ... ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 36] ولا تتبع ما

لم تعلمه علم اليقين وما لم تتثبت من صحته : من قول يقال ، أو رواية تروى ، من
ظاهرة تفسر ، أو واقعة تعلل ، ومن حكم شرعي ، أو قضية اعتقادية) [16] .

عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال : (أُغْدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ،
ولا تكن الرابع فتهلك) [17] وعن سلمان الفارسي (رضي الله عنه) قال : (لا يزال
الناس بخير ما بقي الأول ، حتى يتعلم الآخِر ، فإذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر
هلك الناس) [18] .

2- اتباع الهوى : اتباع الهوى وما تشتهيه الأنفس من أعظم عوائق الاتباع
وأسباب الانحراف عن الحق ، بل إن جميع البدع والمعاصي إنما تنشأ من تقديم
الهوى على النص الصحيح ، وذلك لأن من طبيعة النفس البشرية أنها تميل وترغب
إلى ما تهوى وتحب ، ويصعب على صاحبها صرفها عن ذلك وبخاصة إذا كانت قد
تعودت عليه ما لم يقوَ إيمانه ويصلب يقينه ، بل إن كل من لم يتابع الرسول
ويستجب له فيما جاء به : فإنه لم يذهب إلى هدى ، وإنما ذهب واتبع الهوى [19]؛ ولذا : نجد النصوص قد توافرت في ذم اتباع الهوى والتحذير منه ، ومن ذلك :

قال الله (تعالى) : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ
أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾
[القصص : 50] .

وعن معاوية (رضي الله عنه) قال : (قال رسول الله : ... وإنه سيخرج من
أمتي أقوام تَجَارَى بهم تلك الأهواء كما يَتَجَارَى الكَلَبُ لصاحبه ، لا يبقى منه عرق
ولا مفصل إلا دخله) [20] .

وليس الأمر في وجود هوى في نفس العبد يدعوه إلى مخالفة الرسول ، فإن
ذلك ميدان للاختبار والامتحان ، وقد لا يملكه العبد ، وإنما الخطورة في اتباع العبد
للهوى وأخذه لما يحب وتركه لما يبغض ، وجعل ذلك هو الباعث والدافع إلى القول
والفعل ، سواء أوافق ذلك محبوب الله (تعالى) أو خالفه [21] .

وقد يدخل الهوى على من له تعلق بالنصوص وارتباط بها ، بحيث لا يدعوه
هواه إلى ترك النصوص بالكلية والإعراض عنها ، وإنما يجعله يقرر ما يريده أولاً
ثم يذهب إلى النصوص ليأخذ ما وافق هواه منها .

3- تقديم آراء الآباء والشيوخ والأكابر على النصوص الثابتة : من عوائق
الاتباع الكبرى : تقديم آراء الآباء والشيوخ والأكابر على النصوص الصحيحة ؛
يقول الله (تعالى) : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا
مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾
[المائدة : 104] ، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : (أي : إذا دعوا إلى
دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه : قالوا يكفينا ما وجدنا عليه
الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ
آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾
[المائدة : 104] أي : لا يفهمون حقّاً ، ولا يعرفونه ، ولا يهتدون إليه ،
فكيف يتبعونهم والحالة هذه ؟ ! لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل
سبيلاً) [22] .

وقد وردت آثار كثيرة عن السلف تحذر من ذلك ، ومنها :

قول ابن مسعود (رضي الله عنه) : (ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً ، إن آمن
آمن وإن كفر كفر ، فإن كنتم لابد مقتدين فبالميت ؛ فإن الحي لا يُؤمَن عليه
الفتنة) [23] ، وفي رواية عنه : (لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً ، إن آمن آمن
وإن كفر كفر ، فإنه لا أسوة في الشر) [24] .

وقال عمر بن عبد العزيز : (لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله) [25] .

وقال الشافعي : (أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله لم
يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس) ، وصح عنه أنه قال : (لا قول لأحد مع سنة
رسول الله) [26] .

ولابن تيمية كلام نفيس حول ذلك ، إذ يقول : (فدين الله مبني على اتباع
كتاب الله ، وسنة نبيه ، وما اتفقت عليه الأمة ، فهذه الثلاثة هي المعصومة ، وما
تنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول ، وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً
يدعو إلى طريقته ، يوالي عليها ويعادي ، غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه

الأمة ، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به
بين الأمة ، يوالون به على ذلك الكلام أو تلك السنة ويعادون) [27].
ويدل على مبلغ الجناية التي يوصل إليها تقديم آراء الرجال أيّاً كانوا على
النص الصحيح قولُ الكرخي (عفا الله عنه) : (كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي
مؤوّلة أو منسوخة ، وكل حديث كذلك فمؤول أو منسوخ) [28].
قلت : وهذا هو ما عليه كثير من أبناء زماننا الذين قدموا رأي شيوخهم أو
جماعاتهم أو أحزابهم على النصوص الصحيحة الثابتة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم .
4- تقديم العقل على النقل الصحيح : كرم الله الإنسان وفضله بالعقل ،
وامتدح في كتابه ذوي الألباب والعقول المستنيرة ، قال (تعالى) : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا
الأَلْبَابِ ﴾ [الرعد : 19] وقال (سبحانه) : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص : 29] ولكن كثيراً من الناس لم يبقوا العقل في المكانة
التي وضعه الله (تعالى) فيها ، بل زلوا فيه على صنفين :
* صنف عطله ولم يقم له وزناً .
* وصنف بالغ فيه وجعله مصدراً للتشريع وقدمه على النقل الصحيح ، حيث
بنوا لأنفسهم ضلالات يسمونها تارة بالحقائق واليقينيات ، وتارة بالمصالح والغايات
التي تهدف النصوص إلى تحقيقها وإن لم تنص عليها ، ثم يأخذون النصوص الثابتة
والتي يسمونها بالظنيات ، فيعرضونها على تلك الضلالات ، فما وافقها قبلوه وما
عارضها ردوه ، اعتماداً منهم على قاعدة : اليقين لا يزول بالشك ! ! !
ولم يعلم هؤلاء أن للعقول حدوداً تنتهي في الإدراك إليها ، وأن الله (تعالى) لم
يجعل لها سبيلاً إلى إدراك كل شيء [29] ، كما لم يعلم أولئك أن الله حافظ دينه ،
وعاصم نبيه من الزلل والانحراف في تبليغ دينه ، وبالتالي : فما جاء به حق لا
مرية فيه ، كما أن ما يسمونه حقائق ويقينيات هي عين الباطل ؛ بدليل اختلاف

العقول والأفهام في تعيين الحقائق والمصالح من إنسان لآخر ، وبدليل أن الله
(تعالى) أمرنا بالتسليم لحكمه وحكم رسوله ، تسليماً مطلقاً ، لا بمحاكمة النصوص
إلى العقول قبل التسليم بها ، كما في قوله (عز وجل) : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾
[النساء : 65] ، وما أحسن كلام ابن أبي العز الحنفي حين شرح قول الطحاوي :
(ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام) ، فقال : (أي : لا يثبت
إسلام من لم يسلّم لنصوص الوحيين ، وينقاد إليها ، ولا يعترض عليها ، ولا
يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه) [30] .

5- التعلق بالشبهات : دين الإسلام قائم على تسليم العبد المطلق بالوحي ،
ولكن كثيراً ممن قلّت معرفته بالوحي تعلق بالشبهات وبضروب الخيالات وتوهم
المصالح ، ظنّاً منهم أنها طريق معرفة الحق وسبيل الوصول إليه ، ولذا : تجد مَن
هذا حاله إذا جاءه من أخبره بالحق الثابت بالنص : تعلق قلبه بما سبق إلى قلبه من
شبهات وضلالات ، فلم يؤمن بالحق في ذات نفسه ، وأخذ يلبس على الناس الحق
بما في قلبه وذهنه من باطل ، فضلّ وأضل ، ونتيجة لهذا الأمر الخطير : فقد حذر
النبي أمته من هذا الصنف ، فقال فيما ترويه عائشة (رضي الله عنها) : (.. فإذا
رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم) [31] ، وقال :
(سيكون في آخر أمتي ناس يحدثوكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم
وإياهم) [32] ، وتواترت أقاويل أئمة السلف في التحذير من الشبهات
وأصحابها ، ومن ذلك قول عمر : (إنه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات
القرآن ، فخذوهم بالسنن ؛ فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله) [33] ،
وقول أبي قلابة : (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تحادثوهم ، فإني لا آمن
أن يغمروكم في ضلالتهم ، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون) [34] ،
ويقول ابن سيرين محذراً : (إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون
دينكم) [35] .

6- سكوت العلماء : بسكوت العلماء عن نشر الحق والتحذير من الباطل

يرتفع صوت الباطل ، ويضعف صوت الحق ، ويظن كثير من الناس أن أصحاب
الباطل نتيجة كثرتهم وفشوهم هم أصحاب الحق ؛ بدليل ظهورهم وبروزهم .
حدّث أبو هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله : (من سُئل عن علم
علِمَه ثم كتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار) [36] .
7- مجالسة أهل البدع والمعاصي : من أعظم عوائق الاتباع مجالسة العبد
لأهل البدع والمعاصي ، حيث يزين أصحاب السوء لجليسهم ما هم عليه من باطل ،
فإن لم يستطع أن يقلبوا الحق في ذهنه ويغيروا مفاهيمه : حاولوا إجباره على فعل
باطلهم إما مجاملة لهم ، أو خوفاً من استهزائهم ونقدهم فإن لم يستطيعوا ذلك فلا أقل
من أن يداهنهم بترك الإنكار عليهم ، أو بعدم القيام بعمل الحق الذي لا يتفق مع
أهوائهم .
ولذا : اشتد نكير السلف وعظم تحذيرهم لأهل السنة من مخالطة
جلساء السوء ، ففي قصة عمر مع صبيغ : قال أبو عثمان الراوي : (إن عمر كتب إلينا أن لا
تجالسوه ، قال : فلو جلس إلينا ونحن مئة لتفرقنا عنه) [37] ، وقال ابن عباس
(رضي الله عنهما) : (لا تجالس أهل الأهواء ؛ فإن مجالستهم ممرضة للقلب) .
8- الاعتماد على النصوص الضعيفة والموضوعة : من أعظم عوائق
الاتباع : الاعتماد على النصوص الضعيفة والموضوعة ، وإثبات الأحكام بها ، والقيام
بمنافحة الحق الثابت بالنصوص الصحيحة من قبل كثير من الناس ، سواء أكان ذلك
بسبب جهلهم وعدم قدرتهم على التمييز بين الصحيح والضعيف والموضوع منها ،
أو بسبب الاغترار بمقولة بعض أهل العلم بجواز العمل بالحديث الضعيف في
فضائل الأعمال ، متناسين أن لذلك شروطاً ، أهمها : ألا يعتقد عند العمل ثبوت
الحديث ؛ لئلا ينسب إلى النبي ما لم يقله ، وألا يكون الضعف شديداً ، وأن يكون
الحكم الذي يثبته الحديث الضعيف مندرج تحت أصل عام ، ليخرج بذلك ما لا
أصل له والذي يمتنع تأسيس الأحكام وإثباتها عن طريق ما كان كذلك [38] .

وختاماً : هذه نظرات في حقيقة الاتباع ، أهديها لأحبتي في الله (تعالى) ،
لتجريد المتابعة الحقة للحبيب المصطفى ، ولتظهر حقيقة أدعياء المحبة من المبتدعة
والطرقيين وغيرهم ومدى انحرافهم عن الجادة إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [هود : 88] .

---

(1) الفتاوى لابن تيمية ، ج10 ، ص10 .
(2) مسلم ، م2 ، ص534 ، ح 770 .
(3) ابن ماجة ، ج1 ، ص92 ، ح 251 وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ج1 ، ص47 ، ح 203 .
(4) أبو داود ، ج5 ، ص327 ، ح 5094 وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود م3 ، ص959 ، ح4248 .
(5) الترمذي ، ج5 ، ص456 ، ح 3373 وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ج3 ، ص138 ، ح2686 .
(6) البخاري مع الفتح ، ج1 ، ص192 .
(7) البخاري مع الفتح ، ج5 ، ص306 ، ح2651 .
(8) الترمذي ، ج5 ، ص26 ، ح2641 ، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ج2 ، ص334 ، ح 2129 .
(9) شرح الطحاوية ، ج2 ، ص546 .
(10) أبو داود ، ج2 ، ص168 ، ح 4833 ، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود م3 ، ص917 ، ح 4046 .
(11) البخاري مع الفتح ، ج9 ، ص577 ، ح5534 .
(12) السابق ، ج2 ، ص437 ، ح369 .
(13) المستدرك للحاكم ، ج1 ، ص93 ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ج1 ، ص566 ، ح2937 .
(14) انظر : الفتاوى لابن تيمية ، ج14 ، ص22 .
(15) انظر : حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي ، ج1 ، ص177 ، 178 .
(16) في ظلال القرآن ، م4 ، ص2227 .
(17) الدارمي ، ج1 ، ص84 ، ح252 .
(18) السابق ، ج1 ، ص84 ، ح253 .
(19) انظر : تفسير السعدي ، ج6 ، ص33 .
(20) أبو داود ، ج5 ، ص56 ، ح 4597 ، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ، م3 ، ص869 ، ح383 .
(21) انظر : الفتاوى لابن تيمية ، ج28 ، ص131-133 .
(22) تفسير القرآن العظيم ، ج2 ، ص108 ، 109 .
(23) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ، ج1 ، ص93 ، ح130 .
(24) إعلام الموقعين ، ج2 ، ص135 .
(25) السابق ، ج2 ، ص201 .
(26) السابق ، ج2 ، ص201 .
(27) الفتاوى لابن تيمية ، ج20 ، ص164 .
(28) الرسالة في أصول الحنفية للكرخي ، ص169 ، 170 (مطبوع مع تأسيس النظر للدبوسي) .
(29) انظر : الاعتصام للشاطبي ، ج1 ، ص294_-301 .
(30) شرح الطحاوية ، ج1 ، ص231 ، وانظر : البخاري مع الفتح ، ج 13 ، ص 512 .
(31) البخاري مع الفتح ، ج8 ، ص57 ، ح 4547 .
(32) مسلم ، م1 ، ص12 ، ح 6 .
(33) الدارمي ، ج1 ، ص53 ، ح119 .
(34) سير أعلام النبلاء ، ج4 ، ص472 .
(35) مسلم ، م1 ، ص14 .

(36) ابن ماجة ، ج1 ، ص96 ، ح261 ، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ، ج1 ، ص49 ، ح210 .
(37) الإبانة الكبرى لابن بطة ، ج1 ، ص414 ، ح329 .
(38) انظر : الاعتصام للشاطبي ، ج1 ، ص287-291 .

دراسات شرعية

أصول الفقة .. والمنطق الأرسطي (1)

بقلم : عثمان محمد إدريس

لم يكن لـ (منطق أرسطو) مجال في (علم أصول الفقه) في العصور المتقدمة؛ فقد ألّف الإمام الشافعي (رحمه الله) كتابه الأصولي الموسوم **ب** (الرسالة) بلسان عربي مبين خالٍ من لسان أهل (يونان) ..

والمشهور لدى الباحثين [1] أن أول مؤلّف أصولي امتزجت مسائله ببعض المباحث المنطقية إنما كان في أواخر القرن الخامس الهجري [2] ! !

وفي هذا المقال : يود الباحث تسليط الضوء على أحد المباحث الأصولية التي اشتهر استعمال بعض الأقيسة المنطقية فيها ، وهو : (ترتيب مقدمات الحكم الشرعي) ملتزماً فيه المنهج العلمي في الاستدلال والمناقشة والترجيح ، بعيداً عن التعصب والتقليد المذمومَين ..

- البيان -

الحكم الشرعي لأي فرع فقهي إنما يترتب على مقدمتين فأكثر [3]؛ تشمل الأولى : الدليل التفصيلي ، وتشمل الأخرى : القاعدة الأصولية .

ولما كانت غاية الأصوليين من وضع القواعد الأصولية هي : التوصل إلى حكم شرعي صحيح ؛ فقد بحثوا أيضاً كيفية استعمالها للتوصل إلى ذلك .

ولكنهم أثناء بحثهم لهذه المسألة اختلفوا في جواز استعمال (القياس المنطقي) والاستفادة منه في ترتيب تلك المقدمات .

الأقيسة المنطقية المتعلقة بكيفية التخريج :

يذكر بعض الأصوليين [4] وهم الذين يرون جواز استعمال القياس المنطقي في عملية التخريج استعمال نوعين من الأقيسة المنطقية في هذا المجال ، هما : القياس الاقتراني الحملي ، والقياس الاستثنائي المتصل .

أ- القياس الاقتراني الحملي :

وهو ما تَكَوّنَ من قضايا حملية فقط [5] ، ومثاله قولهم :
كل جسم مؤلّف
وكل مؤلف مُحدَث
إذن ، كل جسم مُحدَث .
قال صدر الشريعة عبيد الله بن مسعود (رحمه الله) : (.. مثلاً إذا قلنا : الحج
واجب ؛ لأنه مأمور الشارع ، وكل ما هو مأمور الشارع فهو واجب .
فالقواعد التي يتوصل بها إلى الفقه ، هي : القضايا الكليّة التي تقع (كبرى) ل
(صغرى) سهلة الحصول عند الاستدلال على مسائل الفقه بالشكل الأول ، كما في
المثال المذكور ، وضم القواعد الكلية إلى (الصغرى) السهلة الحصول ، ليخرج
المطلوب الفقهي من القوة إلى الفعل ، وهو معنى التوصل بها إلى الفقه) [6] .
ويقول الدكتور يعقوب الباحسين : (أما كيفية استنباط الأحكام الشرعية الفرعية: فإن الفقيه المجتهد يأخذ
القاعدة الكلية التي توصل إليها علماء الأصول ، فيجعلها
مقدّمة كبرى في القياس الحملي ، أو ملازمة في القياس الاستثنائي ، بعد أن يقدّم لها
بمقدمة صغرى ، موضوعها جزئي من جزئيات تلك القاعدة ، ودليل تفصيلي يعرفه
الفقيه بيسر وسهولة ، كالأمر بالصلاة في قوله : وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فيكون بذلك
قياساً منطقيّاً ، هذه كيفيته :
المقدمة الصغرى : (الصلاة مأمور بها) في قوله (تعالى) : وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وهذا دليل تفصيلي .
المقدمة الكبرى : و (كل مأمور به واجب) ، وهذه قاعدة أصولية ، أو دليل
كلي إجمالي .
النتيجة : (الصلاة واجبة) ؛ وهذه النتيجة حاصلة بإسقاط الحد الأوسط
المكرر) [7] .
ب- القياس الاستثنائي المتصل :
وهو الذي تكون مقدمته الكبرى : قضية شرطية متصلة ، مركبة من قضيتين
حمليتين قُرِنَ بهما صيغة شرط .
ومقدمته الصغرى : قضية حمليّة ، مذكورة في المقدمة الأولى بعينها أو
نقيضها ويُقرن بها حرف الاستثناء (لكن) .

ونتيجته : قضية حملية تنطوي عليها المقدمة الكبرى [8] .
ومثاله : إذا كانت الشمس طالعة فالكواكب خفية ،
لكن الشمس طالعة ،
إذن : فالكواكب خفية .
واعلم أن القياس الاستثنائي المتصل لا ينتج إنتاجاً صحيحاً مطّرداً إلا إذا كانت
القضية الشرطية المركب منها لزومية [9] .
يقول سعد الدين التفتازاني (رحمه الله) : (وإذا استدللت على مسائل الفقه
بالملازمات الكلية مع وجود الملزوم ، فالملازمات الكلية هي تلك القضايا ، كقولنا :
هذا الحكم ثابت ؛ لأنه كلما دل القياس على ثبوت هذا الحكم يكون هذا الحكم ثابتاً ،
لكن القياس دلّ على ثبوت هذا الحكم ، فيكون ثابتاً) [10] .
وإذا طُبق هذا القياس على مثال الأمر بالصلاة ، فإنه يقال :
إن كانت الصلاة مأموراً بها ، فهي واجبة ،
لكن الصلاة مأمور بها ،
إذن ، فالصلاة واجبة .
كما أنها قد سبقت عبارة الدكتور يعقوب الباحسين في استعمال هذا النوع من
القياس المنطقي [11] .

رابعاً : حكم استعمال الأقيسة المنطقية في كيفية التخريج :

اختلف الأصوليون في حكم استعمال الأقيسة المنطقية (القياس الاقتراني
الحملي ، والقياس الاستثنائي المتصل) في عملية ترتيب مقدمات الحكم الشرعي ،
على قولين ، هما :
القول الأول : جواز استعمال هذين القياسين في عملية ترتيب مقدمات الحكم
الشرعي .
وممن ذهب إلىهذا القول : أبو حامد الغزالي [12] ، وصدر الشريعة [13] ، و
سعد الدين التفتازاني [14] ، والبناني [15] ، والعطار [16] ..
القول الثاني : عدم جواز استعمال هذه الأقيسة في عملية ترتيب مقدمات الحكم
الشرعي ، وإنما يُقتصر على الأساليب العربية فحسب .
وممن ذهب إلى هذا القول : أبو الوليد الباجي [17] ، وابن الصلاح [18] ،
وابن تيمية [19] ، وابن القيم [20] ، والمازري [21] ، والشاطبي [22] .

* الأدلة :

أدلة القول الأول :

1- أن القياس المنطقي ومنه هذان القسمان آلة قانونية ، تعصم مراعاتُها
الذهن أن يزل في فكره [23]، بمثابة علم الحساب والهندسة ونحوه .. مما لا يُعلم
بها صحة الإسلام ولا فساده ، ولا ثبوته ولا انتفاؤه .. فلا مانع من استعمالها والحالة
هذه [24].
2- أن صحة النظم أو الأسلوب العربي في ترتيب مقدمات الحكم الشرعي
المؤدي إلى صحة الحكم الشرعي إنما تكون ممن يُجيد اللغة العربية ، أما وقد أصبح
أكثر المتأخرين لا يجيدونها ، فالأَوْلى إلزامهم بهذه الأقيسة المنطقية .

أدلة القول الثاني :

استدل أصحاب هذا القول بجملة من الأدلة ، أهمها :
1- أن استعمال (علم المنطق) بما فيه هذه الأقيسة المنطقية في المباحث
الشرعية ، والاشتغال به ، بدعة محدثة في الدين ؛ وذلك لأنه علم مستحدث في
الأمة الإسلامية ، لم يشتغل به السلف الصالح ، وإنما ظهر في القرن الثاني الهجري
أثناء حركة الترجمة [25].
يعبر عن هذا الإمام ابن الصلاح (رحمه الله) بقوله : (وأما المنطق فهو مدخل
الفلسفة ، ومدخل الشرّ شرّ ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ، ولا
استباحه أحد من الصحابة ، والتابعين ، والأئمة المجتهدين ، والسلف الصالحين ،
وسائر من يُقتدى به من أعلام الأمة وساداتها) [26].
وقال أيضاً : (وليس بالأحكام الشرعية والحمد لله افتقار إلى المنطق أصلاً ،
وما يزعمه المنطقي للمنطق من أمر الحد والبرهان [27] فقعاقع [28]، قد أغنى
الله عنها كل صحيح الذهن ، لا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية ، ولقد تمت
الشريعة وعلومها ، وخاض في بحر الحقائق والدقائق علماؤها حيث لا منطق ، ولا
فلسفة ، ولا فلاسفة) [29].
ولأن الاشتغال بهذا العلم يؤدي بصاحبه إلى الاضطراب في دينه فيجعله

يكذب بالحق أو يعاند .. مما يؤول به إلى الكفر والزندقة [30] بعد ذلك .
2- أن في استعمال الأساليب ، والعبارات ، والتركيبات العربية .. غُنْيَة عن
استعمال الأقيسة المنطقية الواردة بلسان أهل (يونان) ، بل إن استعمال هذه الأخيرة
مدعاة للاضطراب والخطأ والاختلاف .
وهذه بعض نصوص أهل العلم في هذا المعنى :
أ- يقول الإمام الشافعي (رحمه الله) : (ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم
لسان العرب ، وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس ..) [31] .
ومراده (رحمه الله) ب (لسان العرب) هو : (مصطلح العرب ومذاهبهم في
المحاورة والمخاطبة والاحتجاج والاستدلال) [32] ، وهو اللسان الذي جرت عليه
نصوص القرآن الكريم ، والسنة النبوية [33] .
وكأن الإمام الشافعي (رحمه الله) يريد أن يقول : (إن اللسان العربي المبين
متى استقامت به ألسنة الناس ، وعرفوا طرق دلالة الألفاظ على معانيها ، وأدركوا
أسرار اللغة العربية ، فإن هذا كله يغني عن دراسة المنطق) [34] .
ب- يقول الإمام ابن قتيبة (رحمه الله) : (ولو أن مؤلف (حد المنطق)[35]
بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو ، لعد
نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله وصحابته (رضي الله عنهم) لأيقن أن
للعرب الحكمة وفصل الخطاب ..) [36] .
ج- ويقول الإمام الشاطبي (رحمه الله) : (المسألة السادسة : فنقول : لَمّا انبنى
الدليل على مقدمتين : إحداهما تحقق المناط ، والأخرى تحكم عليه ...)
(واعلم أن المراد بالمقدمتين ههنا ليس ما رسمه أهل المنطق على وفق
الأشكال المعروفة ، ولا على اعتبار التناقض والعكس وغير ذلك ، وإن جرى
الأمرعلى وفقها في الحقيقة ، فلا يستتب جريانه على ذلك الاصطلاح ؛ لأن المراد
تقريب الطريق الموصل إلى المطلوب على أقرب ما يكون ، وعلى وفق ما جاء في
الشريعة ، وأقرب الأشكال إلى هذا التقرير : ما كان بديهياً في الإنتاج ، أو ما أشبهه

من اقتراني أو استثنائي ، إلا أن المتحري فيه إجراؤه على عادة العرب في
مخاطباتها ، ومعهود كلامها ؛ إذ هو أقرب إلى حصول المطلوب على أقرب ما
يكون ..) [37] .

3- أنه قد تبين بالنظر في القياس المنطقي فساده ، وبالتالي : فساد ما يترتب
عليه . كما تبين بالاستقراء والتتبع : عدم تحصيل أي فائدة منه ؛ وذلك لعدم التفات
أهل العلوم والصناعات إليه ، سواء من المسلمين أو غيرهم ، بل من أهله أحياناً .

وسيأتي تفصيل هذا الدليل في الرد على الدليل الأول للقائلين بالجواز [38] .

* مناقشة الأدلة :

أ- مناقشة أدلة القول الأول :

1- مناقشة الدليل الأول :

لا يسلم أصحاب القول الثاني (وهم القائلون بعدم الجواز) بكون المنطق آلة
قانونية تعصم مراعاتها الذهن أن يزل في فكره .

وكلامهم في الرد على هذه الدعوى منصب على جهتين ، هما : جهة كون
المنطق بما فيه القياس المنطقي فاسداً في نفسه . والجهة الثانية : على التسليم
بصحته أو بصحة بعض الأقيسة المنطقية ، فإنه لا فائدة منه ، وإليك بيان هاتين
الجهتين :

الجهة الأولى : كون القياس المنطقي فاسداً في نفسه :

أظهر جملة من العلماء المسلمين ومن غير المسلمين في القديم والحديث فساد
القياس المنطقي ، بعد ما نظروا فيه نظرة علمية فاحصة .

وإليك نصوص بعض علماء الإسلام في فساد القياس المنطقي :

أ- قال ابن قتيبة (رحمه الله) لمن يحاول الانتفاع بهذه المصطلحات المنطقية :
(فإذا ما حاول الانتفاع بها ؛ وذلك باستعمالها في كلامه ، لم تكن إلا وبالاً
على لفظه ، وقيداً للسانه ، وعيّاً في المحافل ، وعقلة عند المتناظرين) [39] .

ب- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : (والكلام في المنطق إنما وقع
لمّا زعموا أنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن أن يزل في فكره ، فاحتجنا أن
ننظر في هذه الآلة ، هل هي كما قالوا ، أو ليس الأمر كذلك ؟) [40] .

ومن كلامه في إبطال هذه الدعوى :
قوله : (الواقع قديماً وحديثاً أنك لا تجد من يُلزم نفسه أن ينظر في علومه به
إلا وهو فاسد النظر والمناظرة ، كثير العجز عن تحقيق علم وبيانه) [41] .
وقوله أيضاً : (الذي وجدناه بالاستقراء : أن الخائضين في العلوم من أهل هذه
الصناعة أكثر الناس شكّاً واضطراباً ، وأقلهم علماً وتحقيقاً ، وأبعدهم عن تحقيق
علم موزون . وإن كان فيهم من قد يحقق شيئاً من العلم : فذلك لصحة المادة والأدلة
التي ينظر فيها ، وصحة ذهنه وإدراكه ، لا لأجل المنطق) [42] .
بل ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) أن من أهـل المنطق الحُذّاق منهم
خاصة من لا يلتزمونه في كلّ علومهم ، فقال : (.. ونفس الحُذّاق منهم لا يلتزمون
قوانينه في كلّ علومهم ، بل يعرضون عنها ؛ إما لطولها ، وإما لعدم فائدتها ، وإما
لفسادها ، وإما لعدم تميّزها ، وما فيها من الإجمال والاشتباه) [43] .
كما استشهد (رحمه الله) في هذا المقام برجوع الكثيرين ممن اشتغلوا به ،
وقضوا أغلب أعمارهم في اعتماده ، بل ممن أوجبوا تعلمه وحكموا على من يجهله
بعدم الوثوق في علمه عن استعماله والاشتغال به ، بعد أن اعترفوا بفساده ، وما
يؤدي إليه من الخطأ والضلال .. فقال (رحمه الله) عن أبي حامد الغزالي (رحمه
الله) : (وبيّن في آخر كتبه أن طريقهم [44] فاسدة لا توصل إلى يقين ، وذمّها أكثر
مما ذم طريقة المتكلمين .. فهو في آخر أمره يبالغ في ذمهم ، ويُبين أن طريقهم
متضمنة من الجهل والكفر ما يوجب ذمها وفسادها أعظم من طريقة المتكلمين ،
ومات وهو مشتغل بالبخاري ومسلم) [45] .
كما نقل (رحمه الله) عن الفخر الرازي (رحمه الله) قوله : (لقد تأملت الطرق
الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت
أقرب الطرق طريقة القرآن .. ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي) [46] .
ج- وقال ابن القيم (رحمه الله) : (وأما المنطق : فلو كان علماً صحيحاً ؛ كان

غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها ، فكيف وباطله أضعاف حقّه ! وفساده ،
وتناقض أصوله ، واختلاف مبانيه : توجب مراعاتها للذهن أن يزيغ في فكره ! ولا
يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ومناقضة كثير منه للعقل
الصريح) [47] .

وقال في موضع آخر : (وأخبر بعض من كان قد قرأه ، وعني به ، أنه لم
يزل متعجباً في فساد أصوله وقواعده ومباينته لصريح المعقول ، وتضمنها لدعاوٍ
محضة غير مدلولٍ عليها ! وتفريقه بين متساويين ، وجمعه بين مختلفين ؛ فيحكم
على الشيء بحكم ، وعلى نظيره بضدّ ذلك الحكم ! أو يحكم على الشيء بحكم ، ثم
يحكم على مضاده أو مناقضه به) [48] .

وقوله أيضاً : (وقد زعم أرسطو وأتباعه أن المنطق ميزان المعاني ، كما أن
العروض ميزان الشعر . وقد بيّن نظار الإسلام فساد هذا الميزان وعوجه وتعويجه
للعقول ، وتخبيطه للأذهان ، وصنّفوا في رده وتهافته كثيراً ..) [49] .

وقوله (رحمه الله) : (وما دَخَل المنطق على علم إلا أفسده ، وغيّر أوضاعه ،
وشوش قواعده) [50] .

الجهة الثانية : عدم الفائدة منه :

على التسليم بصحة المنطق بما فيه الأقيسة المنطقية وما يترتب عليه : فإنّ
العلماء ذكروا أنه لا فائدة منه ، وأنه يمكن الاستغناء عنه ، ومن ذلك قولهم :

أ- قال ابن الصلاح (رحمه الله) : (.. ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاض
في بحر الحقائق والدقائق علماؤها ؛ حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة) [51] .

ب- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : (لا تجد أحداً من أهل الأرض
حقق من العلوم ، وصار إماماً فيه مستعيناً بصناعة المنطق ؛ لا من العلوم الدينية
ولا غيرها .

فالأطباء والحُسّاب والكُتاب ونحوهم يُحققون ما يُحقّقون من علومهم وصناعتهم
بغير صناعة المنطق .

وقد صُنّف في الإسلام علوم النحو ، واللغة ، والعروض ، والفقه ، وأصوله ،
والكلام .. وغير ذلك ، وليس في أئمة هذه الفنون من كان يلتفت إلى المنطق ، بل
عامتهم كانوا قبل أن يُعرّب هذا المنطق اليوناني .
وأما العلوم الموروثة عن الأنبياء صرفاً وإن كان الفقه وأصوله متصلاً بذلك
فهي أجلّ وأعظم من أن يُظن لأهلها التفاتاً إلى المنطق ؛ إذ ليس في القرون الثلاثة
من هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، وأفضلها القرون الثلاثة من كان
يلتفت إلى المنطق أو يعرّج عليه ، مع أنهم في تحقيق العلوم وكمالها بالغاية التي لا
يدرك أحد شأوها ، كانوا أعمق الناس علماً ، وأقلهم تكلّفاً ، وأبرهم قلوباً ، ولا يوجد
لغيرهم كلام فيما تكلموا فيه إلا وجدت بين الكلامين من الفرق أعظم ما بين القَدَم
والمِفْرَق [52] , [53] .
وقال (رحمه الله) : (أما بعد ، فإني كنتُ دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا
يحتاج إليه الذكي ، ولا ينتفع به البليد) [54] ..
وقال أيضاً : (ومعلوم أن أفضل هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان
وأئمة المسلمين ، عرفوا ما يجب عليهم ، وكمل علمهم وإيمانهم قبل أن يُعرف
منطق اليونان ..) [55] .
وقال أيضاً (رحمه الله) : (.. ونفس الحذّاق منهم [56] لا يلتزمون قوانينه
في كلّ علومهم ، بل يعرضون عنها ؛ إما لطولها ، وإما لعدم فائدتها ..) [57] .
د- وقال ابن القيم (رحمه الله) : (وهذا الشافعي ، وأحمد ، وسائر أئمة الإسلام
وتصانيفهم ، وسائر أئمة العربية وتصانيفهم ، وأئمة التفسير وتصانيفهم ، لمن نظر
فيها ، هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه ؟ ولو صح ، لهم علمهم بدونه
أم لا ؟ بل هم كانوا أجلّ قدراً ، وأعظم عقولاً من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان
المنطقيين) [58] .

2- مناقشة الدليل الثاني :

يمكن مناقشة هذا الدليل بالقول : إنه يُشترط في المستنبِط أن يكون عارفاً بقدر

من اللغة العربية [59] يمكنه من النظر في الأدلة الشرعية ، ولا شك أن من توفر
لديه هذا القدر من علوم اللغة العربية فإنه يعتبر مجيداً للغة العربية ، وبالتالي : فهو
قادر على استعمال الأساليب والتركيبات اللغوية الصحيحة التي يراها مناسبة
لترتيب مقدمات الحكم الشرعي .

3- مناقشة الدليل الثالث :

يمكن مناقشة هذا الدليل بالقول : إن اعتبار المنطق كالحساب والهندسة
ونحوها مما لا يُعلم به صحة الإسلام ولا فساده ولا ثبوته ولا انتفاؤه ، غير مسلّم ؛
إذ التحقيق أنه مشتمل على أمور فاسدة ، ودعاوى باطلة كثيرة [60] .

---

(1) انظر مثلاً : مناهج البحث عند مفكري الإسلام للنشار ، ص71 وما بعدها .
(2) على يد أبي حامد الغزالي (ت : 505ه) وذلك في كتابه : (المستصفى من علم الأصول) .
(3) انظر : الموافقات ، ج4 ، ص247 ، ط دار الكتب العلمية ، أولى سنة 1411هـ .
(4) انظر : المستصفى ج1 ، ص37 ، روضة الناظر ج1 ، ص92 ، 110 ، 113 ، 128 ، التلويح ج1 ، ص21 ، التوضيح ج1 ، ص20 ، حاشية البناني على شرح المحلي لجمع الجوامع ج1 ، ص22 ، حاشية العطار على شرح المحلي ج1 ، ص 32 ، أصول الفقه للباحسين ، ص 120 .
(5) انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ، م3 ، ص1193 ، آداب البحث والمناظرة للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، ص62 ، ضوابط المعرفة للميداني ، ص 228 ، نظرية القياس الأرسطي لمحمد سعيد صباح ، ص138 .
(6) التلويح ، ج1 ، ص21 .
(7) أصول الفقه ، ص120 .
(8) نظرية القياس الأرسطي ، ص150 .
(9) انظر : آداب البحث والمناظرة ، ص77 ، ضوابط المعرفة ، ص272 .
(10) التوضيح ، ج1 ، ص20 .
(11) انظر : أصول الفقه ، ص120 .
(12) انظر : المصدر السابق نفسه ، ج1 ، ص37 .
(13) انظر : التلويح ، ج1 ، ص21 .
(14) التوضيح ، ج1 ، ص20 .
(15) حاشيته على شرح المحلي لجمع الجوامع ، ج1 ، ص22 .
(16) حاشيته على شرح المحلي ، ج1 ، ص32 .
(17) انظر : إحكام الفصول ، ص458459 .
(18) انظر : فتاوى ابن الصلاح ، ص34 .
(19) انظر : كتاب الرد على المنطقيين ، ج3 ، ص180 ، نقض المنطق ، ص 168169 .
(20) انظر : مفتاح دار السعادة ج2 ، ص89 ، إغاثة اللهفان ج2 ، ص 260 .
(21) انظر : الموافقات ، ج4 ، ص249250 .
(22) انظر : المصدر نفسه ، ج4 ، ص249250 .
(23) انظر : الرسالة الشمسية ، ص16 ، الإشارات ، ج1 ، ص117 .
(24) انظر : نقض المنطق ، ص209 .
(25) انظر : نظرية القياس الأرسطي ، ص337 .
(26) فتاوى ابن الصلاح ، ص35 .
(27) يُعبّر عن القياس المنطقي بالبرهان .

(28) القعاقع : جمع قعقعة ، وهي حكاية صوت السلاح ونحوه ، والمراد به هنا الصوت الضخم القوي الذي لا فائدة منه ، (انظر : مختار الصحاح ، مادة ق ، ص 545) .
(29) فتاوى ابن الصلاح ، ص35 .
(30) الزندقة : لفظ فارسي معرّب ، ومعناه : عدم التمسك بشريعة ، والقول بدوام الدهر ، وقيل : إبطان الكفر وإظهار الإسلام (انظر : المصباح المنير ، ص 256 ، معجم لغة الفقهاء ، ص234) .
(31) صون المنطق والكلام ، ص15 .
(32) المصدر نفسه ، ص15 .
(33) انظر : المصدر نفسه ، ص15 .
(34) الجانب المنطقي في فلسفة الغزالي ، ص345 .
(35) هو : أرسطو .
(36) أدب الكاتب ، ص5 ، وانظر : المقابسات ، ص71 ، وإحكام الفصول ، ص 459460 .
(37) الموافقات ، ج4 ، ص249 .
(38) سيأتي لاحقاً بعد قليل (49) أدب الكاتب ، ص3 .
(40) الرد على المنطقيين ، ص206 .
(41) نقض المنطق ، ص155 .
(42) المصدر نفسه ، ص169 .
(43) المصدر نفسه ، ص155 .
(44) أي : أهل المنطق .
(45) الرد على المنطقيين ، ص195 .
(46) المصدر السابق نفسه ، ص321 .
(47) مفتاح دار السعادة ، ج2 ، ص8 .
(48) المصدر نفسه ، ج2 ، ص8 .
(49) إغاثة اللهفان ، ج2 ، ص260 .
(50) مفتاح دار السعادة ، ج2 ، ص9 .
(51) فتاوى ابن الصلاح ، ص35 .
(52) المِفرَق بكسر الراء وفتحها : وسط الرأس ، وهو الموضع الذي يُفرق فيه الشعر (انظر : مختار الصحاح ، مادة (فرق) ص500) .
(53) نقض المنطق ، ص168 .
(54) الرد على المنطقيين ، ص3 .
(55) المصدر نفسه ، ص179 .
(56) أي : أهل المنطق .
(57) نقض المنطق ، ص155 .
(58) مفتاح دار السعادة ، ج2 ، ص9 .
(59) انظر ما ذُكر سابقاً في هذا البحث ، ص22 .
(60) انظر : نقض المنطق ، ص209 .

دراسات تربوية قرآنية

لا تحسبوه شراً لكم
(2)

بقلم : عبد العزيز بن ناصر الجليل

في الحلقة الماضية : أوضح الكاتب أهمية فهم قوله (تعالى) : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، وبيّن ارتباط هذا الفهم بسنن الله (سبحانه) في التغيير ، ثم نوّه بأهمية هذا الموضوع ، فكان مما تناوله : علاقة هذه السنة بالعقيدة ، ودورها في علاج اليأس والإحباط ، والرضى بقضاء الله ...

وفي هذه الحلقة يوضح الكاتب هذه السنة .

- البيان -

من ثمرات هذه السنة :

إن لتَفَهّم هذه السنة الكريمة وتذكرها دائماً أثراً كبيراً في القلب ، يظهر جليّاً
في المواقف ، وبالذات في مواقف الشدة والبلاء ؛ فكان لزاماً على المسلم ، وبخاصة
الداعية المجاهد ، ألا يغفل عن هذه الثمرات المنبثقة من قوله (تعالى) : ﴿ لا
تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، وثمار الإيمان بهذه السنة واليقين بها كثيرة ،
أذكر منها ما يلي :

1- حقيق العبودية لله (عز وجل) بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا :

إن الله (عز وجل) لم يعرفنا على أسمائه وصفاته لنحفظها ونعدها فقط ، وإنما
المقصود الأسنى من معرفة أسمائه (عز وجل) وصفاته : أن ندعوه بها ، وأن نتعبد
له (سبحانه) بها ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾
[الأعراف : 180] إن في كل اسم من أسمائه (سبحانه) عبودية على
العبد ، يجب أن تظهر آثارها في القلب ، وعلى الجوارح ، وفي المواقف
.

فمن الأسماء الحسنى التي يتعبد لله (عز وجل) بها من خلال معرفة
هذه السنة : الحكيم ، العليم ، البر ، الرحيم ، الودود ، اللطيف ..
وغيرها . فعندما يؤمن العبد
المسلم بهذه الأسماء فإنها تثمر الإيمان بحكمة الله (عز وجل) في كل أحكامه الكونية
والشرعية ، وتضفي على القلب الأنس ، وإحسان الظن بالله (عز وجل) ، والرضا
بقضائه ، وأنه بر رحيم ، لا يريد بعباده إلا الخير والتيسير والرحمة ، وأن من
لطفه (سبحانه) أن يأتي بالخير لعبده المؤمن من حيث يظن أنه شر ومكروه ، وهذا
من معاني اسمه سبحانه (اللطيف) .

يقول الشيخ السعدي (رحمه الله) : (ومن معاني اللطيف : أنّه الذي يلطف
بعبده ووليه ، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر ، ويعصمه من الشر من
حيث لا يحتسب ، ويرقّيه إلى أعلى المراتب ، بأسباب لا تكون من العبد على بال ،
حتى إنّه يذيقه المكاره ، ليوصله إلى المحاب الجليلة ، والمطالب النبيلة) [1] .

إن اليقين بلطف الله (تعالى) ينفي الشعور باليأس والقنوط من مجيء فرج الله
ونصره ، وينشيء مكانه الأمل والثقة بوعد الله ونصره ، كما أنه ينشيء في القلب
الافتقار إلى الله (عز وجل) وتفويض الأمور إليه ، وسؤاله (عز وجل) دائماً حُسْنَ
العاقبة والاختيار .
وبقيت كلمة أخيرة في هذه الثمرة أنصح بها نفسي وإخواني طلاب العلم ؛
وذلك بأن نحرص أشد الحرص ونحن ندْرس أو نُدَرّس أبواب التوحيد المختلفة على
ألا نكتفي بالدراسة العلمية الذهنية المجردة فقط ، وإنما نسعى جاهدين في ربطها
بأعمال القلوب ، وما تثمره فيها من أنواع العبوديات المختلفة التي يجب أن يظهر
أثرها في المواقف والسلوك وجميع التصرفات ، والله المستعان .

2- الصبر على البلايا والمصائب وقوة الاحتمال :

وهذه الثمرة لها علاقة بما قبلها ؛ فعندما يعرف العبد ربه بأسمائه وصفاته
ويتعبده بها ، فإنها تثمر في القلب ثباتاً ، ورباطة جأش ، وصبراً أمام الابتلاءات
والمصائب ؛ فلا يضعف ولايخور وهو يعلم أن ربه الرحيم الحكيم ، اللطيف
الخبير ، الودود الغفور : هو الذي قدرها عليه ، وأنه لم يقدرها ليعذبه ويشقيه ، ولكن
ليرحمه ويرده إليه .. عند ذلك يفوض أمره إلى ربه ، ويرضى بما يختار له مولاه
(سبحانه) ، ويعلم أنه هو الذي يمده بالقوة والعزيمة ، والصبر وحسن العاقبة . إن
هذا الشعور يملأ القلب قوة وصبراً واحتمالاً أمام الشدائد ؛ لقوة الرجاء في الله (عز
وجل) ، واليقين بفرجه ونصره ، واليقين بحسن العاقبة من الله (عز وجل) فيما أعده
للصابرين ؛ قال (تعالى) : ﴿ إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ
مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء : 104] .
وإن مما يقوي الصبر على الشدائد يقين العبد أن ما أصابه إما أن يكون تكفيراً
لذنوبه ، أو سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه .
فإذا أيقن العبد المبتلى أن العاقبة الحميدة من النصر في الدنيا ، والجنة في

الآخرة لا يوصل إليهما إلا على جسر التعب والمشقة : فإنه بذلك يقوى صبره ،
واحتماله ، وبذله وتضحيته في سبيل الله (عز وجل) ، مع تفقد النفس من الذنوب ،
وتنقية الصف من المنافقين ، فذلك من أسباب النصر .

3- سعادة القلب وطمأنينته وسكينته :

عندما يعلم العبد المؤمن أن كل ما يقضيه الله (عز وجل) هو عين الحكمة
والرحمة ، والخير ، سواء في العاجل أو الآجل ، فإن هذه المعرفة تضفي على
القلب شعوراً بالأنس والسعادة والطمأنينة والسكينة ، مهما اشتدت المصائب ،
وتوالت المحن ؛ وبذلك يسلم صاحب هذا القلب من تلك الأمراض والوساوس التي
تفتك بكثير من الناس الذين حرموا مثل هذه المعرفة العظيمة بربهم ، نعم سوف لا
يخيم على نفسه ما يخيم على النفوس اليائسة ، من الشعور بالقلق والاكتئاب
وانكساف البال ، تلك الأشياء التي تجر وراءها من مصائب الدنيا والدين ما لا يعلمه
إلا الله (عز وجل) . وسوف يريحه هذا الشعور من الأفكار المتعبة التي تنشأ من
كثرة الاختيارات والترددات ، التي هي منشأ القلق والهم والغم .

إن التسخط وعدم الرضى بما قضاه الله (عز وجل) باب إلى الهم ، والغم ،
والحزن ، وشتات القلب ، وسوء الحال ، والظن بالله ظن السوء ، ولا يدفع ذلك كله
إلا معرفة الرب (عز وجل) بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلا ، والتعبد له (سبحانه)
بها ، والعمل بمقتضاها ، والذي يولد في النفس الرضى بما يختاره الله (عز وجل) ،
وأنه أرحم بعبده من نفسه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : 66] .

4- سلامة القلب :

عندما يمتلئ القلب بتوحيد الله (عز وجل) ومعرفته (سبحانه) بأسمائه الحسنى
وصفاته العلا ، ويمتلئ باليقين بوعده ، والثقة بحكمته ، وانتظار رحمته ؛ فإن كل
ذلك يضفي على القلب صفاءً ونوراً وطهارة تُسل بها من القلب أمراض كثيرة ؛
فيصبح القلب بعدها سليماً صحيحاً ، وينعم به صاحبه في الدنيا والآخرة ؛ قال :

(تعالى) في وصف إمام الحنفاء (عليه الصلاة والسلام) : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾
[الصافات : 84] وقال (تعالى) حكاية لدعاء إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) : ﴿ وَلا
تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (88) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 87 89] .

ومن أهم مظاهر سلامة القلب التي تحصل بهذه المعرفة ما يلي :

أ- السلامة من أمراض الحقد والحسد والشحناء :

وذلك لأن الذي يوقن بحكمة الله (عز وجل) ورحمته في كل ما يقضيه من
أقضية كونية وشرعية : يعلم علم اليقين أن لله (عز وجل) الحكمة البالغة في إعطاء
من يشاء ، ومنع من يشاء ، وإعزاز من يشاء ، وإذلال من يشاء . وهذا العلم لابد
أن يثمر الرضى بما يقدره الله (عز وجل) ويقضيه على الناس ؛ وبذلك تزول
الشحناء والأحقاد المتولدة عن الحسد المتولد أصلاً من معارضة أقدار الله (عز وجل)
والتسخط لها .

ب- لسلامة من أمراض الخوف والطمع :

إن المؤمن الراضي بربه والموقن بحكمته وبره ولطفه لا تجده إلا قانعاً بما
آتاه الله (عز وجل) ، مطمئناً إلى اختيار الله (سبحانه) له ؛ لأنه (عز وجل) أعلم بما
يصلح للعبد من نفسه ، وهذه الثمرة تقضي على هذا الداء الخطير (داء الطمع
والحرص والتهالك على الدنيا وزينتها) ؛ لأن القلب الراضي المفوض أمره إلى الله
(عز وجل) قد امتلأ غنى وقناعة ومحبة وتوكلاً على الله (سبحانه) ؛ فحري بقلب
هذه صفته ألا يكون فيه محل لمحبة غير الله ، وهذه الثمرة يتولد عنها ثمار طيبة ،
منها : عدم الأسى على ما فات ، وعدم الفرح بما هو آت ؛ قال (تعالى) : ﴿ مَا
أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا
يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : 22 ، 23] ، والعبد المؤمن لا يدري أين يكون

الخير ، أهو في الفائت أم الآتي ؟ ولكن الله وحده هو الذي يعلم ، وهو علام الغيوب .
كما أنها تثمر أيضاً : الزهد في الدنيا ، والحذر منها ، فكم فرح بالدنيا أناس
فكانت سبب هلاكهم وشقوتهم ؛ قال (تعالى) : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا
فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ [الشورى : 27] .
وكيف يسكن الخوف والهلع في قلب من اطمأن إلى حكم ربه ، وأحسن الظن
به ، وفوض أموره إليه . إن الخوف والهلع سواءً أكان على الرزق أو الأجل لا
يكونان إلا عند من لم يعرف ربه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ، أما لو عرف ربه
(عز وجل) ، وأنه رحيم ودود ، وأنّه حكيم عليم ، وأنه لطيف خبير .. معرفة
حقيقية يتعبد لربه بها : فإن الاطمئنان والسكينة تعمران القلب ، وتنفيان كل دواعي
الخوف والوجل من المخاليق الضعفاء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً فضلاً
عن أن يملكوا شيئاً من ذلك لغيرهم . ويبقى صاحب هذا القلب مطمئناً إلى حسن
اختيار الله له ، يستشرف رحمة ربه وخيره في كل ما يقضيه الله عليه ؛ ولو ظهر
في هذا المقضي من الشر والألم ما ظهر ، فمن يدري ؟ ! فلعل في طيات المحنة
منحة ونعمة .

ج- السلامة من أمراض الكبر والخيلاء :

إن القلب لا يصدق عليه أن يوصف بكونه سليماً صحيحاً حتى ينضم إلى ما
ذكر سابقاً سلامته من أمراض الكبر والفخر والخيلاء ؛ فإن العبد المؤمن متى ما
عرف ربه (عز وجل) وتعبد له بأسمائه وصفاته فإن المسكنة والمحبة لله (عز وجل)
سوف تملأ القلب ؛ وينتج عن ذلك : التواضع للحق وإيثاره ، والتواضع للخلق ،
وعدم غمطهم وظلمهم ، بل لا ترى مَن هذه صفته إلا محبّاً للخير والإحسان للناس ،
ولا تراه إلا محقراً لنفسه ، منشغلاً بعيوبها عن عيوب الناس ؛ لأنه يشهد حكمة الله
(عز وجل) في ابتلائه لعبده بالخير والشر . ولأن أسباب الكبر والتعالي على الناس

لا تخرج عن كونها اغتراراً بنعمة دينية أو دنيوية ، وأنه إذا أيقن العبد المؤمن أن
هذه النعم إنما أعطاها الله لعبده ليبلوه أيشكر أم يكفر ؛ فإن الخوف على النفس من
هذا الابتلاء سيشغله عن التعالي على الناس ، أو الفخر عليهم ، وكيف يكون ذلك
وهو لا يدري أين يكمن الخير أو الشر ؟ ! ولعل هذه النعمة التي يفتخر بها فتنة له
ومتاع إلى حين ، أو أن الذي يفخر عليه ممن هو دونه يكون في خير ورحمة
مفتوحة من الله (عز وجل) عليه ، والناس يحسبون أنه في ضيق وشر ! .

5- محاسبة النفوس والانتباه إلى خطر المعاصي وشؤمها على الفرد والمجتمع :

إن من ثمار هذه السنة الكريمة أن ينتبه العبد المؤمن إلى نفسه ويحاسبها على
تفريطها وذنوبها . وهذا بعض الخير الذي يجعله الله فيما يراه الناس شرّاً ومصيبة ؛
حيث إن المصائب والشرور المقدرة على العبد المؤمن غالباً ما تكون
تكفيراً للذنوب ، وإيقاظاً له من الغفلة ، ومجالاً لتطهير النفس من أدران المعاصي والسيئات .
ومتى ما حصلت هذه الثمرة العظيمة في القلب فإن المصيبة والنقمة تصبح في
حقيقة الأمر خيراً ونعمة لصاحبها ؛ وصدق الله العظيم : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَلْ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

أما إذا حصل العكس من ذلك والعياذ بالله وذلك بأن كانت المصيبة سبباً في
مزيد من الغفلة أو التسخط على أقدار الله (تعالى) ؛ فإن المصيبة والحالة هذه لا
تعتبر خيراً لمن وقعت عليه ، لكنها قد تكون خيراً لغيره عندما يحصل الاتعاظ
والعبرة بحال من وقعت له المصيبة .

6- التعرف على سنن الله (عز وجل) في التغيير ، والسير على هداها :

إن إدراك معاني أسماء الله (عز وجل) وآثارها ومقتضياتها يفتح في قلب
المؤمن منافذ عديدة على سننه (عز وجل) التي لا تتبدل ولا تتحول ، وبخاصة
إدراك آثار حكمة الله (عز وجل) ورحمته ولطفه وإحسانه ، ولقد مرّ بنا كيف أن فقه

قوله (تعالى) : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يطبع في القلب شعوراً
برحمة الله (عز وجل) وخيره وبره ، وأن كل ما يقضيه (عز وجل) هو عين الخير
والمصلحة والحكمة ، وهذا الشعور يؤدي بدوره إلى فتح القلب والفكر على سنن الله
(عز وجل) التي تنبثق من هذه المعرفة ، وعندما تحصل هذه المعرفة لسنن الله (عز
وجل) في التغيير : فإن الفكر البشري ينضبط ويستقيم ولا تتقاذفه الثقافات المادية
ذات اليمين وذات الشمال ، وبذلك يسلم من التفسيرات المادية للأحداث ، والتي
تربط كل المتغيرات بأسباب مادية بحتة ؛ كتلك التي تربط النصر والهزيمة بأسباب
مادية ، أو تلك التي تفسر العقوبات الربانية كالزلازل والأعاصير بكونها ظواهر
فلكية بحتة ، متجاهلين قدر الله وحكمته .

كما أن هذه المعرفة تثمر أيضاً : معرفة الموازين المنضبطة الثابتة التي توزن
بها الأمور والأحوال والأشياء ، وحُقّ لها أن تكون بهذه المثابة ؛ لأنها من عند الله
(عز وجل) الحكيم ، العليم ، الرحيم ، الودود ، الذي يعلم ما كان وما سيكون ،
والذي له الكمال المطلق ، وهو الغني الحميد . وهو (سبحانه) يقول الحق ، ويقصّ
على عبيده رحمة منه وفضلاً جانباً من أسرار سنته وقدره ليأخذ الناس حذرهم
وليعتبروا ويتعظوا ، وليدركوا الرحمة والخير والحكمة الكامنة وراء هذه السنن
الربانية والموازين الإلهية ، والتي بدورها تؤدي إلى معرفة المنهج الصحيح
للتغيير ، كما تؤدي إلى المنهج الصحيح لتقويم الأمور ووزنها بالميزان الحق .

ولقد مر بنا في الثمرات السابقة بعض السنن الربانية التي يهتدي إليها القلب
العامر بمعرفة الله (عز وجل) وتوحيده ، ولكن نخص هنا بعض السنن بشيء من
التفصيل ، وذلك فيما يلي :

أ- العاقبة للمتقين : إن وعد الله (عز وجل) لا يتخلف ، وكلمته لا تتبدل ،
ولقد قال وقوله الحق : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ

الْمَنصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ [الصافات : 171- 173] هذا وعد
الله (سبحانه) ، ولو تأخر وأبطأ على عباده فإن من وراء ذلك التأخير حكمة وخير .
ب- ويتعلق بهذه السنة سنة أخرى في معناها ، وهي قوله (تعالى) : وَلَن
يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً [النساء : 141] يقول ابن القيم (رحمه
الله تعالى) في معنى الآية : (قيل : بالحجة والبرهان ، فإن حجتهم داحضة
عند ربهم ، وقيل : هذا في الآخرة وأما في الدنيا فقد يتسلطون عليهم بالضرر لهم والأذى ،
وقيل : لا يجعل لهم عليهم سبيلاً مستقرة ، بل وإن نصروا عليهم في وقت فإن
الدائرة تكون عليهم ، ويستقر النصر لأتباع الرسول .
وقيل : بل الآية على ظاهرها وعمومها ، لا إشكال فيها بحمد الله ؛ فإن الله
(سبحانه) ضمن أن لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، فحيث كانت لهم سبيلٌ
ما عليهم فهم الذين جعلوها بتسببهم ترك بعض ما أقروا به ، أو ارتكاب بعض ما
نُهوا عنه ؛ فهم جعلوا لهم السبيل عليهم بخروجهم عن طاعة الله ورسوله فيما أوجب
تسلط عدوهم عليهم في هذه الثغرة التي أدخلوها ، كما أخلى الصحابة يوم أُحد الثغرة
التي أمرهم رسول الله بلزومها وحفظها ؛ فوجد العدو منها طريقاً إليهم ، فدخلوا
منها) [2] .
والحاصل مما سبق : أن معرفة السنة السابقة لا تفهم حق الفهم إلا بمعرفة الله
(عز وجل) وتوحيده ؛ فإنه (سبحانه) لا يريد بعباده إلا الخير والرحمة ، ولو تسلط
الأعداء في وقت ما فإن عاقبة هذا التسلط هي الخير والتمكين ؛ وذلك أن المؤمنين
عندما يتسلط عليهم أعداؤهم وينالونهم بالأذى يدركون من واقع قوله (تعالى) : لا
تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ أن ما أصابهم إنما هو بذنوبهم ؛ فيكون الخير
في تسلط الأعداء هو تغيير ما بالنفوس من خلل ، وإحداث التوبة والاستغفار ،
وترك ما أوجب حلول المصيبة ، وهذا خير في حد ذاته لم يكن ليظهر لو استمر

النصر والتمكين مع وجود المعاصي ، وضعف الإيمان ؛ لأنه والحالة هذه يستمر
الفساد بدون إصلاح .

وهذا هو معنى السنة الثابتة التي لا تتغير ، ألا وهي قوله (تعالى) :

ج- ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : 11] .

ومثلها قوله (تعالى) : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : 96] .
والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّاً .

د- قوله (تعالى) : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إنَّمَا
نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : 178] .

هذه الآية ترسم ميزاناً قويماً ثابتاً في أن إغداق النعم على العبد ليس علامة
على كرامة الله له ومحبته إياه ، ولا يدل على أنه في خير وسعادة ، بل الغالب أن
وراء الإملاء والنعم شرّاً وعذاباً ، وفي هذا الميزان توجيه للناس إلى حقيقة الابتلاء
بالخير والشر ، وألا تكون موازينهم في السعادة والتعاسة هي النظر إلى كثرة النعم
أو قلتها ؛ فكم كان الرخاء سبباً للعذاب دنياً وأخرى ، وكم من أناس صالحين حرموا
في هذه الدنيا من نعمة المال والأولاد ، ولكنهم في خير وسعادة دنياً وأخرى . وهذه
المعاني العظيمة لا يمكن إدراكها إلا في ضوء التوحيد وأنواره ، وصدق الله
العظيم : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة جدّاً ، أذكر منها قوله
(تعالى) : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 55] .

7- التؤدة والأناة وعدم الاستعجال :

وهذه هي الثمرة السابعة من ثمار قوله (تعالى) : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَلْ هُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فإذا كان العبد لا يعلم أين يكون الخير والشر فيما يقضيه الله (سبحانه)
إلا في ضوء ما أعلمه الله (عز وجل) عباده من السنن والثواب ، فإنه والحالة هذه
لا ينبغي له أن يتعجل الأمور أو يحلل المواقف والأحداث قبل دراستها والبحث في

جوانبها ، متجرداً في ذلك لله (عز وجل) ، مهتدياً بالموازين والسنن الثابتة التي
ذكرها الله (سبحانه) في كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وإذا وُفّق العبد إلى
هذا الفضل : فإنه في الغالب يصدر عن الحق ، وينطق بالحق ، وتنشأ عنده صفتا (الحلم)
و(الأناة) اللتان يحبهما الله (عز وجل) .. وكم رأينا من أناس تعجلوا أمورهم قبل
أوانها فكانت نتيجتها وبالاً وشرّاً ، وكم سئم أناس من نعمة أنعم الله بها عليهم
فتقالّوها وملّوها وأرادوا غيرها ، فلما جاءهم ما أرادوه وتعجلوه أصابهم منه ضررٌ
ونكدٌ وندمٌ .

ومن صور الاستعجال التي يمكن معالجتها بهذه السنة : ما نراه من تعجل
بعض الطيبين من الغيورين على هذا الدين في قطف ثمرة جهدهم ، وتعريض
أنفسهم للابتلاء ، وتمنيهم لمواجهة الأعداء ... وينسون أو يغفلون عن قوله : (لا
تمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموهم فاصبروا) [3] . لأن المرء لا يدري ما تؤول إليه
الحال عند مواجهة العدو ، ومشاهدة الأهوال . وقد يتمنى العبد حالة معينة
ويستعجلها بتصرفه الجاهل بعواقب الأمور ، ولكن الله (عز وجل) برحمته يحول
بينه وبين هذا الأمر لما يعلمه (سبحانه) من الشر والفتنة على عبده من هذا الأمر ؛
فكم من أناس استعجلوا البلاء قبل أوانه ، فلما أصبحوا تحت وطأته : ضعفوا
وانتكسوا والعياذ بالله فحريّ بالمسلم أن يسأل ربه الدلالة على ما فيه الخير
والصلاح ، وعلى ما فيه مرضاته (عز وجل) ورحمته .

مما سبق يتبين لنا فضل التؤدة والأناة ، وأنها من ثمرة العلم بالله (عز وجل)
وتوحيده وأسمائه وصفاته ، وأنه (عز وجل) يقدر الوقت المناسب لنصر أوليائه بعد
أن يكونوا قد أخذوا بأسباب النصر وأعدوا عدته ، وأنه (سبحانه) هو العليم الحكيم
والبر الرحيم بعباده ، فلا يؤخر عنهم شيئاً ، ولا يقضي عليهم أمراً إلا وفيه الخير
والرحمة ، ولكن العبد القاصر والجاهل بعواقب الأمور يستعجل أمر ربه الرحيم .

وصدق الله العظيم في وصفه للإنسان : ﴿ خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ
آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : 37] فطبيعته العجل والتسرع ، إلا مَن منّ الله
عليه بتوحيده ومحبته والتسليم له ، مع فعله للأسباب الممكنة ، فإنه يسلم من الأفكار
المتعبة ، والاندفاعات المتهورة ، لأنه يفقه قوله (تعالى) : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم ﴾
وصدق الرسول : (التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة) [4].

(1) تفسير السعدي : ج5 ، ص279 .
(2) بدائع التفسير : ج2 ، ص85 .
(3) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد ، باب (156) ، ج6 ، ص181 ومسلم في الجهاد ، باب : كراهة تمني لقاء العدو ، م3 ، ص1362 .
(4) رواه : أبو داود في الأدب ، باب : في الرفق ، ج5 ، ص157 وهو في السلسلة الصحيحة للألباني ، رقم (1794) .

خواطر في الدعوة

تربية قرآنية
(2)

محمد العبدة

ليس أضر على الإنسان من (التقليد) الذي هو الاتباع دون بصيرة أو روّية ، وكأن الإنسان في هذه الحالة يميل للكسل الفكري حتى لا يتعب نفسه في التجديد والتأكد من صحة السير .

ومن الأمور البالغة الأهمية التي تحتاج للتأمل الدائم والمراجعة والتفكير للوصول إلى أحسن الطرق والنتائج : موضوع التربية من خلال منهج يصاغ فيه الإنسان ، فإذا كان المنهج سليماً صحيحاً ، وطريقة عرضه وتربية الناس من خلاله صحيحة متحددة تخدم أغراضه : نجحت العملية التربوية . فإذا أخذنا مناهج التعليم في المدارس المعاصرة ، فإننا نجد المادة العلمية واحدة ، ولكن بعض طرق التدريس قد عفا عليها الزمن وغادرها الناس إلى الأفضل ، بل إن كثيراً من المواد في مدارسنا اليوم وكأنها تُعلّم لكي تُنسى ، فلا يُستفاد منها عندما يخرج الطالب إلى معترك الحياة .

فإذا انتقلنا إلى طرق التثقيف والتربية التي تُمارس لإخراج جيل مسلم وجدنا :

أنفسنا في الموقع نفسه ، فالمسلمون يملكون منهجاً ربانيّاً ، ولكن قد يأتي الخلل من
طريقة عرض هذا المنهج وتربية الناس به .

لم تكن طريقة القرآن في تربية الصحابة أن ينزل عليهم آيات في موضوع
واحد ، ويقال لهم : أقرؤا هذه الآيات واحفظوها وافهموها ، بل كانت الآيات تتنزل
وهي تتحدث عن : صفات الله وأسمائه الحسنى ، وعن عظمة خلقه والكون المسخر
للإنسان ، ودعوة إلى توحيد العبادة ، وفي الوقت نفسه تتحدث عن : الحلال
والحرام ، وعن الجهاد ، وقصص الأنبياء ، ومصائر الأمم ، ولا ينفصل التذكير
بالآخرة وتقوى الله عن الشرائع والأوامر ، كانت الآيات تخاطب النفس الإنسانية
بمجموعها ، لا تخاطب الذاكرة وحدها أو العاطفة ؛ اقرأ قوله (تعالى) : يَا أَيُّهَا
الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ...
[المدثر : 1- 5] ، كيف جمع بين التوحيد والأخلاق والبلاغ ، واقرأ قوله (تعالى)
في سورة الإسراء : لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً (22) وَقَضَى
رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً [الإسراء : 22 ، 23] إلى آخر الآيات
التي تتحدث بعد ذلك عن الإنفاق في سبيل الله ، والنهي عن التبذير وأكل أموال
الناس بالباطل .. ، وتأمل في مستهل سورة (المؤمنون) كيف تحدثت الآيات عن
العبادات ، ثم عن الخلق والبعث ، ثم عن نعم الله على خلقه ، ثم عن قصة نوح
(عليه ا لسلام) .. إن هذه الطريقة في المزج بين الموضوعات ، وإن كانت من
معجزات القرآن ، إلا إنها طريقة تربوية أيضاً ، وعندما يُدرس الفقه منفصلاً عن
الوعظ والتذكير بالآخرة : فسيخرج فقهاء قساة القلوب ، والسيرة النبوية يجب ألا
تُدرس وكأنها تاريخ ، ولا العبادات وكأنها تكاليف .

وإذا كان تقسيم العلوم لابد ، وقد جرى على ذلك العلماء ، ولكن الارتباط بين
هذه العلوم كان واضحاً عند علماء السلف ، والصلة بالقرآن ومواعظه وقوارعه

موجودة .. وفي حياتنا المعاصرة : لابد من ربط هذه العلوم بالواقع ، واستلهام
القرآن في مزجها والربط فيما بينها ، هذه الطريقة التي زكت نفوس الصحابة ؛
فكان أحدهم يقوم الليل بآية واحدة يكررها متدبراً لها ، وذكر عن جبير بن مطعم أنه
قال : (سمعت النبي يقرأ في المغرب ب (الطور) فلما بلغ هذه الآية أَمْ خُلِقُوا مِنْ
غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ [الطور : 35] كاد قلبي أن يطير) . وقد قال (تعالى)
عن القرآن إنه : هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ [البقرة : 2] .

دراسات اقتصادية

وقفات متأنية مع
عمليات التمويل في البنوك الإسلامية
(2)

د .محمد بن عبد الله الشباني

يتم استخدام بيع المرابحة أو ما يطلق عليه بعض الفقهاء المعاصرين (بيع
المرابحة للآمر بالشراء) على نطاق واسع في تمويل احتياجات الأفراد والمؤسسات
التجارية ، فعقد المرابحة يمثل أكثر الوسائل استخداماً في استثمار الأموال المتاحة
لدى البنوك الإسلامية .

لقد أُثيرت شبهات كثيرة حول أسلوب وطريقة استخدام هذا النوع من البيوع
الذي استُخدم من قِبَل البنوك الإسلامية كوسيلة لتوفير التمويل قصير الأجل وطويل
الأجل ، وأن ما يتم ما هو إلا حيلة لاستحلال الربا باسم (بيع المرابحة) .

إن أهـمية هذا الأسلوب من وسائل التمويل المستخدمة من قبل البنوك
الإسلامية تعود إلى أنه أكثر الأساليب استخداماً من ناحية ، وإلى ما يثار حوله من
شبهات ، مما يستدعي مناقشته ، بقصد بناء أسلوب تمويلي بعيد عن الربا وعن أي
شبهة تؤثر على إسلامية العمليات التمويلية .

لقد سبق أن ناقشتُ عقد المرابحة في كتابي (بنوك تجارية بدون ربا) منذ أكثر
من سبع سنوات ، وقد أوضحت في تلك الدراسة بعض التحفظات ، واقترحت
بعض التعديلات ، ولكن بعد مضي هذه الفترة وبحكم ممارستي في الواقع العملي
واطلاعي على بعض العقود التي تجريها بعض الشركات مع البنوك الإسلامية
تكونت لدي قناعة : أن الأسلوب والطريقة المطبقة لا تختلف من حيث الغاية
والهدف عن الوسائل المتبعة في البنوك الربوية ؛ فضمان الربح وتجنب المخاطرة
عنصران أساسان في عملية ما يطلق عليه (بيع المرابحة) ، ولهذا : سوف يتم
مناقشة هذا الموضوع من عدة جوانب تتمثل في فهم بيع المرابحة كما هو معروف

في الفقه الإسلامي ، وأسلوب بيع المرابحة المتبع من قبل البنوك
الإسلامية ،
والشبهات المثارة على هذا الأسلوب المستحدث لبيع المرابحة ،
ومناقشة وجهات
النظر المختلفة المؤيدة والمانعة لهذا الأسلوب ، مع إيضاح البدائل
المقترحة كأسلوب
للتمويل يبتعد بذاك الأسلوب من التمويل عن شبهة الربا .

بيع المرابحة لدى الفقهاء الأقدمين :

يعرف ابن قدامة في المغني المرابحة بأنها : (البيع برأس المال
وربح
معلوم) [1] أو يصورها بقوله : (رأس مالي فيه ، أو : هو عَلَيّ بمئة بعتك
بها وربح عشرة) [1]، وصورة المرابحة عند المالكية كما جاء في
الموطأ للإمام مالك : (الأمر المجتمع عليه عندنا في البَزّ [*] يشتريه
الرجل ببلد ، ثم يقدم به بلداً آخر ، فيبيعه مرابحة ..)[2].

وتختلف المذاهب الفقهية فيما بينها في نوعية الشروط : فالمذهب
الحنبلي :
يشترط لصحة المرابحة معلومية الربح ، وثمن الشراء ، وعلى البائع
تبيان ثمن
شرائه على حدة ، وما أنفقه على البيع على حدة [3] . أما المذهب
الشافعي : فهو
يتفق مع المذهب الحنبلي في معلومية الربح والثمن ، ولكنه لا يلزم
فصل ثمن
الشراء والنفقة التي أنفقها ، أما الأحناف : فيجيزون بيع المرابحة بثمن
الشراء بربح
بشرطين : الأول : أن يكون المبيع عرضاً ، فلا يصح بيع النقدين
مرابحة ،
والثاني : أن يكون الثمن مثليّاً كالريال والدولار ونحوهما [4] .

مما سبق يتضح أن بيع المرابحة كما ورد في كتب علماء الفقه
الأقدمين
يشترط : وجود السلعة ، ومعلومية الثمن ، وتحديد الربح من قِبَل البائع
قَبل البيع ،
ويقصد بمعلومية الثمن : معلومية ثمن شراء البائع للسلعة التي يريد
المرابحة فيها
من قبل راغب الشراء وما أنفقه البائع عليها ، وبالتالي : فإن أي شكل من
الأشكال
المستخدمة في بيع المرابحة أو ما يطلق عليه : (بيع المرابحة للآمر
بالشراء) هو
عقد مستحدث يجب ألا ينسب إلى بيع المرابحة كما أشار إليه الفقهاء ،
وإنما يجب
أن يدرس بمعزل عن ذلك وفق الظروف التي استُحدث فيها هذا العقد
والغاية التي
قصدت منه .

أسلوب بيع المرابحة كما تجريه البنوك الإسلامية :

تتمثل إجراءات بيع المرابحة كما هو متبع من قبل البنوك الإسلامية في
الخطوات التالية [5] :

1- يتقدم طالب التمويل للبنك الإسلامي مبدياً رغبته في شراء أصل رأسمالي
أو مواد خام أو سلعة رأسمالية أو استهلاكية أو سلع بغرض الاتجار فيها ، ويقدم
للبنك فاتورة التسعيرة المرسلة من المصدر أو البائع المحلي الذي يمتلك السلعة وقد
حددت في هذه التسعيرة مواصفات السلعة المراد شراؤها .

2- يتفق البنك الإسلامي مع طالب التمويل بقيام البنك بشرائها لصالحه ،
ويتم توقيع وعد بالشراء من قِبَله ووعد من البنك بأنه سيقوم ببيعها له بزيادة معينة
تمثل ربح البنك .

3- يتم توقيع عقد بيع مرابحة بعد وصول مستندات البضاعة للبنك ، يحدد
في هذا العقد قيمة البيع بما في ذلك ربح البنك ، وهذا على أن يتم دفع الثمن مؤجلاً
على شكل أقساط أو كمبيالات .

بتحليل هذه الصورة من التعامل التي يطلق عليها (بيع المرابحة) أو (بيع
المرابحة للآمر بالشراء) نجدها تتصف بالآتي :

1- الهدف والغاية من هذه المبايعة هو قيام البنك بتوفير المال اللازم لطالب
التمويل ، فالبنك لا يتعامل بالسلع المراد بيعها ، أي : إن مهمته ليست الاتجار ،
واتباع هذا الأسلوب هو محاولة للخروج من المحظور الشرعي .

2- الهدف من الوعد بالشراء والوعد بالبيع : توفير حقيقة الالتزام من كلا
الطرفين (البائع والمشتري) ، وبدون هذا الوعد لا يقوم البنك بالالتزام .

3- طالِب التمويل لم يتقدم للبنك الإسلامي بقصد شراء سلعة موجودة ومملوكة
عند البنك ، وإنما قصده : توفير المال لشراء هذه السلعة على أن يتم سداد قيمتها
مؤجلاً ، فالتأجيل غاية العقد وليس البيع هو الهدف ، وبالتالي : فإن ما يُطلق عليه
(العائد الربحي) لا يخالف في الحقيقة ما يمكن أن يعادل (الفائدة) التي يتم تحصيلها

من القروض والتسهيلات البنكية حسب ما يتم فعله من قبل البنوك الربوية ، والعبرة
في العقود بمقاصدها لا بألفاظها .
لقد ثار حول هذا التعامل جدل يتعلق بمدى إسلامية هذه الصورة المستحدثة
من التعامل ، وأُثيرت شبهات عدة يمكن حصر بعضها في الأمور التالية :
أولاً : أنها معاملة قُصد منها التحايل على أخذ الربا ، وقد جاء الشرع بإبطال
الحيل والتنديد بأصحابها من اليهود ومن حذا حذوهم ، وقد استُدل على أن هذا البيع
هو حيلة لاستحلال الربا بما ذكره ابن عبد البر المالكي في (الكافي) [6] من صور
لبيع المرابحة مشابهة للذي تتعامل به البنوك الإسلامية حالياً ، يقول : (معناه : أنه
تحيل في بيع دراهم بدراهم أكثر منها إلى أجل بينهما سلعة محللة ، مثال ذلك : أن
يطلب رجل من آخر سلعة يبيعها منه بنسيئة وهو يعلم أنها ليست عنده ويقول له :
اشترها من مالكها هذا بعشرة وهي علي باثني عشر إلى أجل كذا ، فهذا لا يجوز) ،
لقد كان الرد على هذه الشبهة من المجيزين لهذه الأسلوب من التعاقد : بأن البنك
الإسلامي يقوم بالشراء حقيقة ، ولكنه يشتري ليبيع لغيره ، كما أن العميل الذي
طلب أن يقوم البنك بالشراء له يريد شراءها حقيقة ، وبالتالي : فلا حيلة في الأمر ،
كما أن الادعاء بأن هذه العملية تشبه ما يجري في البنوك الربوية وإنما تغيرت
الصورة فقط قول غير صحيح ، فإن تغيير الصورة أحياناً يكون مهمّاً جدّاً ، وإن
كانت نتيجة الأمرين واحدة في الظاهر ؛ فالمهر للزوجة وما تعطاه البغيّ يجتمع في
الظاهر في أنه مقابل الاستمتاع ، لكن النية مختلفة ، ويندرج هذا في المقارنة بين ما
يُدفع مقابل الاستقراض من ربا ، وما يُدفع ربحاً مقابل البيع ، وأن الفرق بينهما أن
ما يتم في البنوك الإسلامية هو بيع يترتب عليه ضمان البائع (البنك) للسلعة حتى
يتم استلامها من قبل المشتري ، فإذا هلك المبيع فهو على ضمان البائع ، ويتحمل

تبعة الرد بالعيب إذا ظهر فيه عيب ، كما أنه إذا تأخر في توفية الثمن في الأجل
المحدد لعذر مقبول لم تفرض عليه أية زيادة كما يفعل البنك الربوي [7] .
إن حقيقة الشبه تقوم على أساس النية ، التي هي مدار الأمر وأصل من
الأصول التي يرجع إليها في التأكد من سلامة القول والفعل ، ولا شك أن النية لا
يمكن قياسها ولا يمكن التأكد منها ، ولكن الأمر راجع إلى قلب وفؤاد الشخص ،
وبهذا : فإن الصورة الظاهرة لهذا العقد يجب ربطها بالنتيجة ؛ فالبنك الإسلامي لا
يُتاجر في العروض وإنما يُتاجر في الدراهم ، فهو لا يقوم بالشراء لصالحه بقصد
البيع بعد أن يتملك السلع وبدون اتفاق مبدئي ، بل إنه لا يلتزم بالشراء إلا بعد التأكد
من وجود العميل الراغب في الشراء وأخذ الضمانات لحفظ حقوقه ، كما أن السلعة
لا يتم شراؤها إلا وفق ما يرغبه المشتري من مواصفات ، وبالتالي : فإنه لا نية
للتجارة لدى البنك كما يظهر من التعامل ، والقاعدة الشرعية المتفق عليها : أن
العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني .
ثانياً : أن هذا الأسلوب من المرابحة لم يقل به أحد من فقهاء الأمة الأقدمين ،
بل وُجد من قال بحرمته ، واستدل من قال بهذا القول بما روي عن الإمام مالك في
الموطأ تحت باب النهي عن بيعتين في بيعة : (أنه بلغه أن رجلاً قال لرجل : ابتع
لي هذا البعير بنقد حتى ابتاعه منك إلى أجل ، فسئل عن ذلك عبد الله بن عمر ،
فكرهه ونهى عنه) [8] .
إن واقع الأمر في البنوك الإسلامية أن العميل هو الذي يبيّن للبنك : السلعة
المطلوبة ، ومن توجد لديه ، وسعرها ، ومواصفاتها ، بحيث يقتصر دور البنك على
شرائها وسداد قيمتها لمن توجد عنده ، ويبيعها إلى أجل للعميل ، وقد ذكر ابن جزي
في (القوانين الفقهية) صورة من صور بيع العينة ، وهي : (أن يقول رجل لآخر
اشتر لي سلعة بعشرة وأعطيك خمسة عشر إلى أجل ، فهذا ربا محرم) [9] ، لقد رُد

على ذلك من قبل المجيزين لهذا الأسلوب بأنه : ليس من الضروري في المعاملات
المستجدة أن نجد مِنَ الأئمة السابقين مَن قال بحلها ، وليس من اللازم رد كل مسألة
إلى صورة من صور المعاملات القديمة لتُخَرّجَ عليها وتأخذ حكمها ، بالإضافة إلى
ذلك : فقد أشار المجيزون إلى قول الإمام الشافعي في كتابه (الأم) : (وإذا أرى
الرجلُ الرجلَ السلعة ، فقال : اشترِ هذه وأُربحك فيها كذا ، فاشتراها الرجل ،
فالشراء جائز ، والذي قال أربحك فيها : بالخيار ، إن شاء أحدث فيها بيعاً وإن شاء
تركه) ، لقد اعترض على هذا بأنه : حتى ولو قُبل هذا القول ، فإن نص الشافعي
(رحمه الله) خلا من ذكر الأجل ، كما أن الإلزام غير جائز في المرابحة ، بعكس ما
هو معمول في البنوك الإسلامية من ضرورة توقيع الالتزام .
ثالثاً : ومن الشبهات المثارة : شبهة أنه بيع من بيوع العينة (بيوع العينة
محرمة) ، أما وإنها من بيوع العينة ؛ فقد ذكر المالكية في كتبهم هذه الصورة ضمن
بيوع العينة ، وعدوها من الصور الممنوعة ، وهي أن يقول : اشترِ لي سلعة كذا
بعشرة نقداً وأنا أبتاعها منك باثني عشر إلى أجل ، وهذا هو جوهر (بيع المرابحة)
الذي تجريه البنوك الإسلامية ، يرد المجيزون لهذا البيع بأن : المالكية توسعوا
كثيراً في إدخال صور من البيوع في دائرة الحظر بحجة سد الذرائع ، وأن إدخال
هذه الصور من البيوع الممنوعة لم يجئ به كتاب ولا سنة ، بل هو عمل اجتهادي
محض ، فقد اختلفوا في وجه منع بيوع الآجال ، فمنهم من قال : إنها أكثر معاملات
أهل الربا ، ومنهم من قال : إنها سد لذرائع الربا ، كما أن بيع المرابحة الذي تجريه
البنوك الإسلامية لا يدخل ضمن مفهوم بيع العينة ؛ فالجوزجاني يقول : إن العينة
إنما اشتقت من حاجة الرجل إلى العين من الذهب والوَرِق ؛ فيشتري السلعة ويبيعها
بالعين التي احتاج إليها ، وليست به إلى السلعة حاجة ، وصورة بيع العينة كما جاء

في (نيل الأوطار) للشوكاني : أن يبيع شيئاً إلى غيره بثمن معين (مئة وعشرين
مثلاً) إلى أجل (سنة مثلاً) ويتسلمه المشتري ، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل
من ذلك القدر (مئة مثلاً) يدفعه نقداً ، فالنتيجة : أنه سلمه مئة ليتسلمها عند الأجل
مئة وعشرين ، وعليه : فإن بيع المرابحة الذي تجريه البنوك لا يدخل ضمن صور
بيع العينة ؛ لأن طالب السلعة يرغب فيها ، فهو يحدد مواصفات السلعة ، ويحدد
مصادر صنعها أو بيعها ، والبنك يشتريها بالفعل ويُساوم عليها ، ثم يبيعها للعميل
الذي طلب الشراء ووعد به ، كما يفعل أي تاجر ، فإن التاجر يشتري ليبيع لغيره
وقد يشتري سلعاً معينة بناء على طلب بعض عملائه [10] .

رابعاً : أن أسلوب هذا التمويل بواسطة بيع المرابحة يدخل تحت النهي عن
بيعتين في بيعة أو حقيقتين في حقيقة ، وقد ورد الحديث الذي رواه أبو داود في
سننه عن أبي هريرة مرفوعاً (من باع بيعتين في بيعة فله أوكسهما أو الربا) [11]
ويقول المجيزون لبيع المرابحة : إن تفسير هذا الحديث لا يماثل واقع بيع المرابحة
الذي تجريه البنوك الإسلامية ؛ فقد ذكر ابن القيم في (تهذيب سنن أبي داود) تعليقاً
على هذا الحديث : أن للعلماء في تفسيره قولين : أحدهما : أن يقول بعتك بعشرة
نقداً أو عشرين نسيئة ، وهذا هو الذي رواه أحمد عن سماك ، ففسره في حديث ابن
مسعود قال : (نهى رسول الله عن صفقتين في صفقة واحدة ... ، قال سماك :
الرجل يبيع البيع فيقول : هو بنساءٍ بكذا وكذا ، وبنقد بكذا وكذا .) [12] والتفسير
الثاني : أن يقول : أبيعكها بمئة إلى سنة على أن أشتريها منك بثمانين حالاً ، وهذا
معنى الحديث الذي لا معنى له غيره ، وهو مطابق لقوله : (فله أوكسهما أو
الربا) ..) وعلى ضوء هذا : فإنه لا يوجد ثمنان معروضان (نقداً بكذا ونسيئة بكذا) في بيع المرابحة كما تجريه البنوك الإسلامية ، وإنما هو بثمن واحد محدد معلوم ، وبالتالي : فإنها مواعدة على بيعة حقيقية واحدة ، ثم عقد بيع واحد بعد امتلاك البنك للسلعة [13] .

خامساً : من الأمور المثارة من المعترضين على هذا الأسلوب من التمويل :
أنه يدخل في بيع ما لا يملك أو بيع ما ليس عند البائع ، وهو ما يسمى أيضاً بيع
المعدوم ، وهو بيع منهي عنه ، والبنك الإسلامي يبيع العميل ما لا يملكه ، فالسلع
التي يُطلب منه شراؤها من الداخل أو استيرادها من الخارج لم تدخل في حوزته
بملك حقيقي ، فهو لا يشتري السلعة إلا إذا ضمن المشتري وتواعد معه . يرد
المجيزون لهذا الأسلوب على هذه الشبهة بأن : معنى ما وردت به السنة من النهي
عن بيع ما ليس عندك هو كما ذكر الخطابي في (معالم السنن) أنه يراد به : بيع
العَيْنِ دون بيع الصفة ، وبيع الرجل مال غيره موقوفاً على إجازة المالك ، لأنه بيع
ما ليس عنده ولا في ملكه ؛ وهو غرر ، كما أشاروا إلى ما ذكره ابن تيمية تفسيراً
لهذا الحديث في الفتاوى بأنه : يراد به بيع عين معينة ، فيكون قد باع مال الغير
قبل أن يشتريه ، وفيه نظر ، وإما أن يراد به بيع ما لا يقدر على تسليمه وإن كان
في الذّمة ، وهذا أشبه فيمن يكون ضمن له شيئاً لا يدري هل سيحصل أو لا يحصل . وأن ما يُعمل به من قِبَل البنك الإسلامي هو أن ما يتم قبل إجراء عقد البيع إنما
هو مواعدة بينهما وليس بيعاً وشراء ، وإنما يتم البيع وفق الصيغة المتبعة من قبل
البنك الإسلامي إذا تم تملك السلعة بالفعل ، أي ورود مستندات الشحن ووصول
البضاعة إلى الميناء .

على ضوء ما سبق من مناقشة لأسلوب المرابحة أو المرابحة للآمر بالشراء
كما يتم اتباعه من قِبَل البنوك الإسلامية وما طُرح حول هذا الأسلوب من شبهات
تمت مناقشتها ، فإن ما يظهر من حقيقة هذا الأسلوب هو : أنه أسلوب أقرب للربا
منه للبيع ، وحتى يتضح الأمر عن مدى قُرب وبُعد هذا الأسلوب المتبع من الربا
لابد من معرفة طبيعة الربا والاختلاف بينه وبين الربح الناتج عن البيع .

إن المعنى اللغوي المجرد للفظ الربا هو : الزيادة في ذات الشيء سواء أكانت

هذه الزيادة حسية أم معنوية ، وسواء أكانت من جنس الشيء نفسه أم خارجة عنه ،
وسواء أكانت في متحدي الجنس أم غير متحدي الجنس [14] ، أما المعنى
الاصطلاحي : فقد قيدها في الزيادة في أشياء مخصوصة [15] ، ويقصد بهذه
الزيادة المخصوصة أنها : زيادة أحد البديلين المتجانسين من غير أن يُقابل هذه
الزيادة عوض ، أما إذا قيل : إن الربا يطلق في الشرع على المبادلات والبيوع
المنهي عنها ؛ فيعود ذلك إلى أن كل بيع محرم يشتمل على زيادة غير مشروعة ،
سواء أكان أحد العوضين ليس مالاً مباحاً مثل الخمر ، أو أن الزيادة لأجل الجنس ،
فيكون بذل العوض فيه في غير مقابلة ، أو أنه غير متكافئ لأن فرق الزيادة في
غير مقابلة عوض مشروع ، وعلى ضوء هذا : فما هو الفرق بين البيع والربا ؟ .

الفرق بين البيع والربا يمكن إجماله في الأمور التالية [16] :

1- يقتضى البيع من التاجر جهداً سواء أكان جسميّاً أو فكريّاً ، فيحصل على
الربح الذي يقابل ذلك ، فهو يشتري السلعة إما من السوق المحلية أو يستوردها من
أماكن أخرى ، ويقوم بشحنها ونقلها وتجزئتها والإعلان عنها وترويجها ، وهذه
أعمال يستفيد منها أفراد آخرون سواء من يستهلك السلعة أو من يناولها لتصل ليد
المستهلك ، أما المرابي : فهو لا يمارس عملاً من هذه الأعمال ، وإنما يستفيد هو
وحده من توفر هذه الأموال لديه وحاجة الناس إليها .

2- التاجر يخضع للربح والخسارة ، وهذا مبدأ مهم في التجارة ، فإن السلعة
لا تكون دائماً مربحة ، فقد يخسر التاجر فيها وقد يربح ، أما المرابي : فحصوله
على الفوائد دون عمل أو تَعَرّض للخسارة ، لأن موضوع تجارته نقد متوفر لديه .

3- أن البيع يتم بين ثمن ومثمن ، فكان من المعقول أن يجري فيه الكسب ،
أما الربا : فهو مقابل الأجل والإمهال ، وهذا ليس عوضاً .

إن فهم الطبيعة الربوية للعمليات التمويلية يقتضي تحديد الإطار الذي يمكن

من خلاله تمييز الأعمال الربوية عن غيرها . يتمثل الإطار الذي على ضوئه معرفة
العمليات التي يدخل فيها الربا والعمليات التي لا تدخل ضمن نطاق الربا
المحرم في : أن المكونات الأساسية للعمليات الربوية تتكون من ثلاثة جوانب [17] .

1- الزيادة على رأس المال ، أي : الزيادة المضافة على مقدار التمويل
المطلوب الذي يرغب فيه المقترض أو المحتاج للمال .

2- ارتباط نسبة الزيادة بالمدة ، أي : إن مقدار الزيادة على مقدار المال
الممنوح لراغب التمويل تتناسب طرديّاً مع فترة السداد ، وبالتالي : فالزمن هو
المتحكم في مقدار الزيادة وفي نسبتها .

3- الزيادة في المال عما تم تمويله شرط في أي تعامل يتم بين المتعاملين .

إن وظيفة البنوك الأساسية في المجتمعات المعاصرة بما في ذلك البنوك
الإسلامية تقوم على أساس توفير المال للمقترض ، وتخضع هذه البنوك لأحكام
مراقبة البنوك المركزية التي تقوم وظيفتها على أساس التأكد من أن هذه البنوك
تتاجر في النقود اقتراضاً وإقراضاً ، وبالتالي : لا يحق لها الخروج عن هذا
الإطار ، وبحكم أن البنوك الإسلامية تخضع لإشراف البنوك المركزية فهي ملزمة بالبحث
عن وسائل تتفق والطبيعة الإقراضية للبنوك ، وعلى ضوء هذه الحقيقة : فللنظر
إلى طبيعة (بيع المرابحة للآمر بالشراء) مقارنةً بالمكونات الأساسية لمفهوم الربا ،
نجد أن المرابحة التي تجريها البنوك الإسلامية وكما سبق أن أوضحنا تتكون من
ثلاثة أطراف (بائع ، ومشترٍ ، وبنك وسيط) ، فالبنك لا يمارس عملية البيع ، فهو
وسيط بين البائع والمشتري ، والغرض من وجود البنك في العملية : توفير ثمن
السلعة نقداً وقبض قيمتها من المشتري لها الذي لا يجد المال الكافي لذلك على أساس
أن يقوم بالدفع للبنك في زمن لاحق ، ويأخذ البنك مقابل هذا التأجيل زيادة في ثمن
السلعة المشتراة تزداد بزيادة الزمن الذي سوف يتم فيه سداد الثمن ، ولا شك أن
الزيادة في ثمن السلعة عن الثمن الحال جائز عند جمهور الفقهاء إذا كان التأجيل من

البائع للمشتري للسلعة ، أي : إذا كانت العلاقة ثنائية بين بائع ومشترٍ لعوض ،
ولكن عند تدخل وسيط مالي (وهو البنك) ، وأَخْذ فرق في السعر ، واعتبار ذلك
تجارة وإطلاق لفظ (بيع المرابحة) عليه لا يغير من الحقيقة شيء ، فهذا الأسلوب
يشبه الحسم المصرفي الذي تقوم به البنوك الربوية عند دفع قيمة الكمبيالة المسحوبة
لصالح أحد التجار على فرد آخر ، فيقوم البنك مقام المسحوب له الكمبيالة ، ويأخذ
مقابل ذلك : خصماً على قيمة الكمبيالة محسوبة على أساس الزمن الذي بين تاريخ
الحسم وتاريخ استحقاق الكمبيالة ، فالمرابحة التي تجريها البنوك الإسلامية تشبه
حسم الكمبيالات من حيث الغاية والهدف ، وإن اختلف الأسلوب ؛ فالأسلوب المتبع
من قبل البنوك الربوية من حيث العلاقة الثلاثية هو : أن التمويل في (الحسم) يمنح
إلى البائع ، وفي (بيع المرابحة) إلى المشتري ، ودور الوسيط (البنك) : توفير
المال لأي طرف من الطرفين .

وعلى ضوء ما سبق : فإن (بيع المرابحة) أو (بيع المرابحة للآمر بالشراء)
كما يتم في البنوك الإسلامية يعتبر من البيوع التي ينبغي تجنبها ؛ لما فيها من شبهة
الربا ، ولابد من البحث عن أساليب التمويل التي لا لبس فيها ولا شبهة ، وبدون
محاولة للبحث عن حيل شرعية لخداع النفس ، بل إن من الواجب إعادة النظر في
إجراءات وطرق العمل في البنوك الإسلامية بدون تأثر بالطرق المتبعة في النظام
البنكي الربوي .

والبديل الذي يمكن اقتراحه كوسيلة لتمويل احتياجات الراغبين في التمويل
يرتبط بأمر ضروري يجب وضعه في عين الاعتبار ، وهو : ضرورة إعادة هيكلية
تنظيم البنك الإسلامي بحيث لا يخضع لأساليب الرقابة المركزية للنظام البنكي
الربوي ، بل يجب إيجاد وسائل وإجراءات ذات استقلالية تعالج العلاقات التنظيمية
بين البنك المركزي وما يمكن أن يمارسه من رقابة على السياسة النقدية وما يمكن

أن يطرحه من وسائل لتنفيذ السياسة المالية التي ترغب الأجهزة المشرفة على
الأنشطة الاقتصادية في المجتمع في تنفيذها .
إن الإطار الذي يجب أن يمارس فيه البنك نشاطه التمويلي يرتكز على
ركيزتين : الأولى : المشاركة ، والثانية : المضاربة [18] .
إن عمليات التمويل التي يحتاج إليها النشاط الاقتصادي تتمثل في تمويل
أربعة أنواع ، هي :
1- تمويل أصول رأسمالية .
2- تمويل شراء مواد أولية لمصنع .
3- تمويل شراء سلع لغرض الاتجار بها .
4- تمويل مالي للصرف على الأعمال التشغيلية قبل تحقيق الإيراد .
ويمكن اتباع أسلوب المشاركة فيما يتعلق بتمويل الأصول الرأسمالية ، بحيث
يكون للبنك نسبة من الأرباح التي يحققها المستفيد من هذا الأصل ، أو استخدام
أسلوب التأجير لهذه الأصول تحت ضمان المستأجر لهذا الأصل ، بحيث يكون
هناك عائد إيجاري ، ولابد في هذه الحالة أن يتم وضع سياسة استثمارية للبنك ،
بحيث لا يؤثر تمويل هذا القطاع على نسبة السيولة لدى البنك .
أما بالنسبة لتمويل شراء مواد أولية : فيمكن اتباع أسلوب بيع السّلَم ، بحيث
يقوم البنك بشراء جزء من المنتج النهائي بسعر يتفق عليه وفق شروط بيع السلم ،
أما بالنسبة لتمويل شراء السلع لغرض الاتجار بها ، وكذلك تمويل الاحتياجات
التشغيلية لمختلف الأعمال الخدمية : فيمكن اتباع عقود المضاربة ، بحيث يقوم
البنك بتمويل التاجر باعتباره مضارباً أو باعتباره شريكاً في شركة عنان ، بشرط
أن يتوفر لدى البنك الجهاز الإداري والمحاسبي والفني لمتابعة نشاطات المضاربات
مع الآخرين ، ويمكن قيام بنوك متخصصة لتمويل عمليات المضاربة وفق الأنشطة
الاقتصادية المختلفة .

---

(1) المغني ، ج4 ، ص199 .
(*) البَزّ : الثياب ، أو متاع البيت من الثياب ونحوها -
البيان - .
(2) موطأ الإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى الليثي ، بعناية : محمد فؤاد عبد الباقي ، م2 ، ص668.

(3) المغني ، ج4 ، ص199 .
(4) الفقه على المذاهب الأربعة ، للجزيري .
(5) بيع المرابحة للآمر بالشراء ، د يوسف القرضاوي ، ص24 .
(6) الكافي ، لابن عبد البر ، ج2 ، ص572 .
(7) بيع المرابحة للآمر بالشراء ، للقرضاوي ، ص27-31 .
(8) الموطأ ، م2 ، ص663 .
(9) القوانين الفقهية ، ص284 .
(10) بيع المرابحة للآمر بالشراء ، ص40-47 .
(11) أخرجه أبو داود وابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ، م 2 ، ص662 ، ح2955 - البيان - .
(12) أخرجه الإمام أحمد ، ج1 ، ص398 ، وصححه أحمد شاكر ؛ ج5 ، ص295 - البيان - .
(13) بيع المرابحة للآمر بالشراء ، ص39-49 .
(14) الربا والمعاملات المصرفية في نظر الشريعة الإسلامية ، د عمر بن عبد العزيز المترك .
(15) المغني لابن قدامة ، ج4 ، ص3 .
(16) الربا والمعاملات المصرفية في نظر الشريعة الإسلامية ، ص49 ، 50 .
(17) الربا لأبي الأعلى المودودي ، ص82-84 .
(18) لمزيد من معرفة هيكلية التنظيم للبنك التجاري غير الربوي ، يراجع كتابنا : بنوك تجارية بدون ربا ، الفصل الرابع من الباب الثاني .

مقال

الكتابة بين الغموض والبيان

بقلم : محمد عبد الأعلى

النقلة من (التراب) ، أو (الطين) ، أو (الماء المهين) ، ... إلى البشر الكريم ذي العينين واللسان والشفتين مظهر نعمة (الوجود من العدم) التي منّ الله (سبحانه) على الإنسان بها ، وإخراج الإنسان من عالم العجمة إلى عالم البيان : نعمة أخرى حققت وجوده المعنوي ، مثلما تحقق وجوده المادي بالنعمة الأولى ، وتآزرت النعمتان متواكبتين لتكونا ركيزة أهلية الإنسان للتلقي والفهم والبلاغ عن الله ﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ القُرْآنَ (2) خَلَقَ الإنسَانَ (3) عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ [الرحمن : 1- 4].

نورانية المنهج :

والبيان وضوحاً وعمقاً ، صفاء وقوة : من سمات التعبير والتفكير التي تتأصل وتترسخ لدى المتأمل لوصف الكتاب والرسول والمنهج بالنور ، ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : 15] ، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الصف : 8] ، فالنور معنى تتآخى فيه وتنبثق عنه معاني الوضوح ، والشمول ،

والاستقامة ، والدلالة ، والبيان ، فالنور كاشف لغيره وهو في نفسه لائح واضح ،
وأشعة الضوء تسير في خطوط مستقيمة ، تحدد المسار ، وتهدي من أقرب نقطة ،
وكذلك تنتشر فتكشف وتشمل .
والرسول ﴿ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو مبين ، والقرآن ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴾ ، وهو مبين ، والمؤمن الذي ﴿ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ استقامة في
الفعل وصدقاً في القول يكتسب النور سمة لإسلاميته ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ
وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [الأنعام : 122] ، أما أولئك الذين سلكوها
عوجاً وأرادوها ضلالة ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ
قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة : 14] هؤلاء ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ
يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : 17] .

إسلامية النص :

الوضوح حُلة يكتسيها النص إذا قويت صلة صاحبه بمنهج القرآن ، واقترب
من هدي النبي ، وأحسب أن كل طرائق التعبير وأساليب الكتابة يجب أن تكتسي
الحلة ذاتها ، وإلا عرت من صفة النفع الذي أوقف الرسول ضمن ما أوقف المثوبة
عليه (أو علم ينتفع به) .

ولا أعني بالوضوح : أن يكون النص خالياً من العمق ، تتحد نتائج قراءته
لجميع من يقرأ ، مهما تباينت مداركهم وتفاوتت مستويات فهمهم ، فقط أريد أن
أبرئ العمق من كل صلة تربطه بالغموض والإيغال في الرمزية .

ورد في القرآن الكريم قول الله (تعالى) : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن
نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ
ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : 266] ، وقد يكون المعنى الظاهر لهذه الآية : إن حدائق
النخيل والأعناب نعمة من الله يمنحها من يشاء من عباده ، ولكنه (سبحانه) قد يرسل

عليها الأعاصير بسبب معاصي أصحابها ، فتهلك الثمار والأشجار جزاءً للمعاصي .
ولكن ابن عباس (رضي الله عنهما) كانت له قراءة أخرى لتلك الآية ، لما
سأل الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) النّاسَ عنها ، قال ابن عباس
(رضي الله عنهما) : (ضربت مثلاً بعمل ، فقال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس :
لرجل غني يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصي ، حتى
أغرق أعماله) ، قال ابن كثير : (وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية وتبيين
ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ، ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدّل
الحسنات بالسيئات عياذاً بالله من ذلك فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من
الصالح ، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال ، فلم يحصل منه شيء ..
وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ضرب الله مثلاً حسناً وكل أمثاله حسن
قال : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ .. ﴾ ... وكذلك الكافر : يكون يوم القيامة إذا
رد إلى الله (عز وجل) ليس له خير فيستعتب ، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل
بستانه ، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه ، كما لم يغن عن هذا ولده وحرم أجره
عند فقر ما كان إليه كما حرم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبره
وضعف ذريته .) [1].
فهناك عدة مستويات للفهم في تلك الآية يحتملها النص حينما يكون هناك مجال للاحتمال .
ولكنها محكومة بالنسبة للقرآن بمنهجية وضوابط ، ويظل القرآن ثريّاً معطاءً ، وفي الوقت ذاته غير ذي غموض ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾
[الزمر : 28] .

المطبوعة الإسلامية :

المطبوعة الإسلامية مجال من مجالات البيان الإسلامي ، وهي وسيلة بلاغ
تنعكس فيها معالم المنهج الإسلامي فكرةً ومنهاجاً مهما تنوعت (الزوايا) وتعددت

(الأبواب) وتباينت (الملفات) ، وهي قناة توصيل أحسبها ذات ثلاث شعب :
انتفاع ، استمتاع ، توعية .
فهي تعرض تأصيلاً لقواعد المنهج الإسلامي في شتى المناحي العقدية والعملية
؛ بياناً لمعالم المنهج ، وتبصيراً بعور المنهاج الأخرى ، كما تضرب المثل من
الواقع تطبيقاً على تلك القواعد ، وترشد وتنصح ؛ إظهاراً للحق ، وقياماً بواجب
البلاغ .. وتلك شعبة الانتفاع .
وهي نافذة المسلم إلى عالمه الإسلامي والعالم الخارجي ، يتعرف من خلالها
أحوال المسلمين على رحابة البسيطة : يتعرف واقعه الذي يعيشه ، وقضاياه التي
يجب أن ينفعل لها ويساهم في نصرتها ، ومعالم مخطط المكر العالمي وخباياه ،
وموقفه من أحداث الساعة وما تلده الأيام .. وتلك شعبة التوعية .
وهي لا تنعزل عن بستان الأدب الذي تكون الجولة فيه رحلة ممتعة مع وعاء
الإسلام ؛ بحثاً عن معطيات الإعجاز والثراء ، وفتحاً لنوافذ التعبير عن الخلجات
والمشاعر الإسلامية ، مقارعة لأبواق الباطل وكشفاً لتهافتها ، يتفيء فيها المسلم
ظلال الحكمة ويتذوق إسلامية المعاني .. وتلك شعبة الاستمتاع .
وليست المطبوعة الإسلامية صالوناً للفكر (الأرستقراطي) أو الأدب (العاجي)
، إنما هي قناة توصيل وتواصل مع المسلمين ، فهي قناة توصل الخطاب من الكاتب
إلى القارئ ، فالقارئ هو محور جهدها وغاية مسعاها ، ولقد أولى القرآن الكريم
أهمية قصوى لمسألة التواصل والتوصيل ، وركز على قضية اللغة باعتبارها ركيزة
لكل خطاب ؛ فالمتلقي هو المحل القابل وهو العامل المحدد ليس للأسلوب بل لنوع
اللغة ، فلا يعقل أن يخاطب الناس بلغة لا يفهمونها ولا يفقهون فحواها ؛ ومن ثم :
كان كل رسول يبعث بلغة قومه لكي تنجلي القضايا وتستبان المحجة وَمَا أَرْسَلْنَا
مِن رَّسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ [ابراهيم : 4] .

بيت القصيد :

فلا يستقيم أن يذهب الكاتب على صفحات المطبوعة الإسلامية بالقارئ في

دهاليز الغموض والرمزية ، لا يستطيع أن يتقدم خطوة في فهم ما يقرأ ، يدعه
حائراً يعتصر الكلمات ، مجهداً فكره ؛ فلا يقبض سوى الريح ، تكوم أمام ناظريه أو
تنثر الألفاظ ، تستر فيها المعاني عزيزة إلا في (بطن الشاعر) ، هل وجب على
القارئ أن يرجم بالغيب ليستكنه مرادات لم تُرد أو يتأول للكاتب تأويلات قد لا ترد
له على بال .. ماذا ينفع ذلك القارئ أو يمتعه أو يزيد في وعيه وقد وقف مشدوهاً
أمام العمق السحيق الذي لا يصل نظره إليه ، ماذا يفيده ؟ ! والهدف أن تجند نفسه ،
ويصقل قلبه ، ويتسع أفقه (وقد تداعى الأكلة إلى قصعتها) .

وقد يكون للغموض أسباب سياسية أو اجتماعية تدفع الكاتب أن يتخذ الرمز
جُنّة يستتر وراءه للتعبير عن فكرته ، وقد يكون هناك أسباب أخرى ، ولعل من
أسباب الغموض قصور الرؤية لدى الكاتب ، وعجز أدواته الفنية ، وقد يكون هناك
سبب نفسي آخر هو : (نزوعه إلى تجارب لا يشاركه فيها عدد كبير من
الناس) [2].

ولكن الكاتب الإسلامي الذي يتواصل مع أمته لا يمكن أن تأسره تلك
النزغات ، فهو الدال على الخير ، وهو (يقول خيراً أو يصمت) ، فلا يعالج آهات الأمّة
وأساها بمزيد من الآداب المضطربة المبهمة ومزيد من الحيرة والإرباك ، إذ إن
الصورة الغامضة قد تورث لدى المتلقي اضطراباً ، فلا يتبنى موقفاً ولا تتحرك له
عاطفة .

وهل أتاكم نبأ القوم : إنهم قد ضاقوا بأهل الغموض ذرعاً : (إنه لحدث
تاريخي جلل أن يترجم الشعر العربي إلى لغات أجنبية ، ولكن الخطوة الذكية
المتصفة بالواقعية تقتضي بأن يترجم الشعر العربي إلى اللغة العربية أولاً ؛ لأن ما
ينشر على أنه شعر حديث هو مجرد كلمات يعجز ناظمها عن تأويلها) [1] [2]، (إنه
نوع من التعقيد الناجم عن زيغان الدلالة الناجم بدوره عن زيغان الدال ، ناجم عن
افتقاد لحظة التجلي الشعرية التي يصير فيها الغموض وضوحاً) [3]، (وهناك من

يقول وبنوع من الإجحاف بأن على القارئ أن يكون أحد المشاركين في مخاض
القصيدة وكتابتها كاملة ، ولا ندري ما المانع من كتابتها كاملة غير منقوصة ليشاركه
القارئ في مطالعتها وارتياد مغاليقها وتذوقها واستيعابها مثبتاً جدارة موهبته في
إيصال ما في نفسه إليه) [4]، (إن غياب المقاييس والضوابط في هذه الأيام قد
سهل على الكثيرين اقتراف جريمة الشعر) [5] .

أرأيتم ؟ ! تلك مقولات بعض النقاد وهم المشتغلون بالأدب المنشغلون به ،
وحتى من خلال منظارهم فليس الغموض اتجاهاً رائداً ولا أسلوباً سديداًـ ولا ضرورة
عصرية ، وإنما هو تقليعة بالغ المقلد في إظهار غرابتها .

ولست أريد أن ينعزل الأديب المسلم عن عصره .. لِيَنْزِلْ ساحة القوم ..
لينازِلَهم ويبارزْهم بمصطلحهم ، ويناظرْهم بلسانهم ، ولكن .. لتكن المطبوعة
الإسلامية ساحته الخضراء التي يتواصل فيها مع قارئه نصيحة من نور المعصوم
تستلهم ، وفكرة من ثمر الشجرة الباسقة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء .

(فالأديب هو واحد من المدعوين للمارسة الخطيرة بفنه القادر على التأثير
والتحصين ، بل إنه مدعو إلى أكثر من هذا ؛ إلى دعوة المجتمعات الإسلامية
لاستعادة ممارستها الأصيلة وقيمها المفقودة وتكاملها الضائع ، وإحساسها المتوحد ،
وصبغتها الإيمانية التي أبهتتها رياح التشريق والتغريب) [6]، وهل يكون ذلك إلا
بأسلوب ودود لا يدغدغ مشاعر القارئ ، ويرفع من درجة فوران الدم في عروقه ،
فالقضية قضية التزام وهو (التزام مضمون وفكرة ، وهو يقتضي بداهةً الحرص
على اللغة العربية والصلة الوثيقة بين المضمون وما يتطلبه من شكل مناسب ،
فالتجديد في مجال الأشكال باقٍ ما بقيت الحياة ، والالتزام ليس أبداً نقيضاً للحرية
بمعناها الأصيل .. فالالتزام الأمثل انبثاق تلقائي من قلب الأديب وفكره ، وهو ليس
تصوراً كلاميّا ، أو شعوراً عامّاً ، لكنها حقيقة واقعة تقوّم الأحكام والآداب) [7] .

وقلب الكاتب الإسلامي هو القلب الذي تلألأت فيه معالم المنهج الإسلامي ،
وتبلورت فيه رغبة هداية البشر ، وامتزجت مع أمل إصلاح الأمة والمساهمة في
نصرة دين الله .

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير : ج1 ، ص319 .
(2) الناقد إحسان عباس ، مجلة الفيصل ، العدد (207) .
(3) الناقد زكريا تامر ، مجلة الفيصل ، العدد (207) .
(4) الالتزام يرفض الغموض ولا يقتل الإبداع ، مجلة الفيصل ، العدد (207) .
(5) الناقد غسان مطر ، مجلة الفيصل ، العدد (207) .
(6) الكاتب الإسلامي د عماد الدين خليل ، مجلة الفيصل ، العدد (207) .
(7) نجيب الكيلاني : مدخل إلى الأدب الإسلامي ، ص23 .

سباعيات

كابل .. إلى أين ؟ !

شعر : د .محمد ظافر الشهري

حريّ بكابل أن تُرحما ... وقد غرقت في بحار الدّما
شكت أمسِ مغتصباً كافرا ... فأصبح غاصبُها مسلما
دعونا (الفئاتِ) إلى خطةٍ ... تُحَكّمُ قرآننا المُحْكَما
فمالوا إلى (هيئةٍ) دأبها ... وإن عُلم الحقّ أن تَظْلِما
رفضتم (نجيبَ) ولكنكمْ ... رضيتم لـ (بطرس) أن يَحْكُما
فكنتم لعمري كمستبدلٍ ... فَبُدّل بالصّبرِ العلقما
وكابل باتت كزنزانةٍ ... يُوَرّثُها المجرمُ المجرما

نص شعري

الليث الجريح

صالح بن عيضة صالح الزهري

سِرْبُ القَطَا .. بُكريّةُ الأسْرابِ — سَلَبتْ هَوَاكِ وقَطّعتْ أنْسَابي

سِرْبُ القَطَا .. في مُقْلَتيّ رواحلٌ — ذكَرتْ نَوَاكِ فَغَرّقتْ أهْدابِي

سِرْبُ القَطَا هَمسَتْ إليّ قطَاتُهُ — شَغَفاً إلى أُسْطُورَةِ الكُتّابِ

قالت : بنُو اللّيثِ الجريحِ أأنتُمُ ؟ — فَكأنّهُ .. طَعْنُ الحشَا بِحِرابِ

وعرفْتُ أنّ العُرْبَ ليثٌ مُجْرَحٌ — كان القَوِيّ فَعَادَ قِطّ الغَابِ

وأراهُ عِملاَقَ الأسِىَ ولَرُبّما — غَلَبَتْ عَليْهِ .. أصاغِرُ الألقَابِ

إنّي أراكَ مُكبّلاً وأرىَ الفَضَا — بَرْقاً يُلوّحُ بينَ سُودِ سَحَابِ

وأرىَ أعاصيراً بأفْقِكِ بَعْثَرَتْ — ما جمّع الإسلامُ مِنْ أنْسَابِ

وأراكَ تَنْزِفُ والجُرُوحُ تَفَاقَمَتْ — وأراكَ تُرْمى مِنْ يَدِ الأعْرابِ

ولَقَدْ لَفَظْتَ مَعَ الأنينِ مَقَالةً — القُدْسُ فِيهَا (مَوطِنُ الأغْرابِ)

ما القُدْسُ إلا قِطْعَةٌ مِنْ أمّةٍ — خُلِقَتْ (بِإقْرَأ) فِي حِمى الأنْصَابِ

ما القُدْسُ إلا قِصّةٌ دَمَوِيّةٌ — عُزِفَتْ عَلَى ... قِيْثَارَةِ الإرْهَابِ

وَعَلَتْ عَنَانَ العُرْبِ حَتّي جَمّعَتْ — كُلّ العُرُوبَةِ في جَنَاحِ ذُبَابِ

ما القُدْسُ إلا مَوْطِنٌ طُرِدَتْ بِهِ — أسْدُ الرّجَالِ وَبُدّلَتْ بِكِلاَبِ ! !

وتغيّرت فِيهِ الوُجُوهُ فَمَا تَرَى — إلا خَنَازِيراً عَلَى الأبْوابِ

والعُرْبُ مَا قدِرُوَا سِوَى إنْكَارِهِ — والعُرْبُ مَا قَدِرُوا سِوَى الإضْرَابِ

وَيلُ اليَهُودِ إذَا تَكَاتَفَ شَعْبُنَا — وَتَدَاخَلَ الأحْزَابُ في الأحْزَابِ

فَإذَا تَكَامَلتِ الصّفُوفُ وَزَمْجَرَتْ — فَلْيَرْتَقُوا هَرَباً .. إلى الأسْبَابِ

وَتَعلّقَتْ بِذُرَا السّمَاءِ قُلُوبُنَا — وتَجمّعتْ أشْتَاتُنا ... بِكِتَابِ

وتَفَجّرَ البُرْكَانُ مِنّا وانْتَهَتْ — آجَالُنَا وتَخَضّبتْ بِخِضَابِ

وَتَدَاعَتِ الدّنْيَا عَلَيْنَا واعْتَلَتْ — أسْيَافُنَا مِنْ فَوْقِ كُلّ رِقَابِ

وَتَهَاوَتِ الأنْوَاءُ في سَاحَاتِنَا — وَرَأى اليهُودُ المَوْتَ ذا الأنْيَابِ

واسْتُبْدِلَتْ رَايَاتُ هُوذا بِالّذِي — أذِنَتْ عَلَيهِ قُصُورُهَا بِخَرَابِ

واستُبْدِلَتْ رَايَاتُ كِسْرَى بِالّذِي — وَثَبَتْ لِنُصْرَتِهِ خُطَى الوَثّابِ

وتَخَاذَلُوا أهْلَ الكِتَابِ وَجَرّبُوا — مِنْ أمّةِ الإسْلاَمِ سَوْطَ عَذَابِ

فَهُنَالِكَ ابْتُلِيَ الرّجَالُ وَزُلْزِلُوا — حَتّى تَبِينَ معادنُ الأقْطَابِ

فَمنِ ارْتَضَى عَيْشَ الكَرِيمِ مُوَشّحاً — بِالعِزّ وَالإكرام والإعْجَابِ

فَلْيَقْتَحِمْ قِممَ البُطُولَةِ إنّني — لِلْمَجْدِ أبْذُلُ قُوّتِي وَشَبَابي

فاسْتَيقِظي يَا أيّهَا الهِمَمُ الّتي — مَاتَتْ وَعُمّرَ فَوْقَهَا بِقبَابِ

ولعلّ هَذَا الغَيْمُ يَطْوِي خَلْفَهُ — نَصْراً يَشُقّ لَفَائِفَ الأنْقَابِ

وَلَنَا مِنَ القَوْلِ الخُلاَصَةِ عَلّهَا — تُغْنِي عَنِ الإطْنَابِ والإسْهَابِ

كَمْ آيَةٍ مَرّتْ وَمَرّ وَعيدُهَا — أفَلاَ تَدَبّرَهَا أولو الألْبَابِ ؟ !

نص شعري

إصلاح الذات قبل الذوات

شعر : علي العيسي

المرء إن لبس الحياة بساطةً ... ونزاهةً لم يَعْتَرِضْهُ المَحْرَجُ
من سار في بُطءٍ تعثّر سيرُه ... ولقدٍ يجاوز حدّه من يدلجُ
كم من بطيءٍ أو سريع حاصد ... عنتاً ، وكان يظنها لا تُفْرَجُ
فإذا استقر مع التوسط سَيْرُه ... فوق التباطؤ ، دون ركضٍ يَفْلَجُ
فبذا يحقق ما الذي يسعى له ... بين الرقاد ، وبين طيشٍ يُزْعِجُ
فالعدل ، والعقل المفكر ، والهدى ... والرأي ، والودّ النقيّ : المَنْهَجُ
من أتقن النهج القويم مع التقى ... خلف النبي فخصمه لا يُبهَجُ
من يسبق الأحداث تكبو خيله ... ومن استقر مع الجليد يُثَلَّجُ
إن الجمود أو الجحود تخلفٌ ... أو رقدة لم ينتظرها المُسرجُ

***

هذي مجالسنا تَضُوعُ [*] حماسة ... لكن يعزّ حقيقة ما يُنْتَجُ
ما أعظم الأفكار تملك ألسُناً ... لكنّ ترجمة الحديث تخدّجُ
حلو الكلام يمر من أفواهنا ... يسمو إلى عالي الأمور ويَعْرُجُ
لكننا في الفعل .. نخجل فعلنا ... فيظل في دَمِ عِزّنا يِتَفَرّجُ
قد شابت الألفاظ فوق شِفَاهِنا ... أما الوعود .. فنطفة تترجَرجُ

***

يا من يطالب غيره بفضائل ... وهو الذي يبدو إليها أحْوَجُ
ما فاز في نشر الفضيلة مرشد ... وخيوله تشكو الهزال وتَعْرُجُ
لو أنصف الإنسان في أقواله ... وفعاله لبدا الضيا والمخرَجُ
لو أصلح الإنسان بدءاً نفسه ... عمّ الرضا ، والحق حق أبلجُ

(*) في القاموس المحيط : تضوع المسك : فاح وانتشرت رائحته .

قصة قصيرة

نهاية طريق

بقلم : خالد أبو الفتوح

ما إن انتهى (سالم فرحات) من إنزال آخر راكب حتى انتحى بسيارته جانباً وانكب يعدد حصيلة ليلة من العمل الشاق .. انفرجت أسارير (سالم) مع بلوغ العد نهايته واطمئنانه على وفرة دخله الليلة .. (الآن أستطيع إحضار ما تبتغيه سهاد) .. قالها وهو يمد رجليه أمامه ويلف ذراعه حول مسند الكرسي المجاور له .. وبعد هنيهة من الشرود .. اعتدل في جلسته ، أخرج من جواره زجاجة مشروب .. صب بعضه واحتساه عسى أن يعينه على مواصلة المسير .

أدار محرك السيارة وواصل السير راضياً ومنتشياً .. بعد قليل ، ظهر أمامه
بائع الفاكهة الذي اعتاد المرور عليه ..
(أحضر بعض الفاكهة للأولاد ؟)
(ولكن .. قد يؤثر ذلك على طلبات (سهاد) .. لا أريد أن أخسر رضاها)
واصل سيره بسرعة وكأن هناك من يلاحقه أو أن هناك غاية يريد أن يطوي
الأرض طيّاً حتى يدركها .. وبعد أحد المنعطفات ظهر على جانب الطريق ثلاثة
أشخاص يشيرون له ..
(زبائن ! ! يبدو أنها ليلة سعادة وأنس من أولها لآخرها .. لا بأس من زيادة)
أوقف السيارة عندهم ، ومال بجذعه تجاههم ..
(إلى أين وجهتكم ؟)
(حتى نهاية الطريق ...) قالوها وهم يهمون بالركوب .
لم يهتم (سالم) بمساومتهم على الأجرة كعادته مع كل زبون ؛ فأي شيء
يدفعونه سيكون دخلاً إضافيّاً إلى الحصيلة التي اطمأن على وفرتها ، كما أنه لن
يتكلف شيئاً لتوصيلهم إلى (نهاية الطريق) .
(ما اسم صاحبنا ، ومن أي البلاد ؟) .. قالها أحد الثلاثة بادئاً حديثاً يقطع به
طول الطريق وسكون الليل ..
(سالم فرحات .. من الصبراوية .. من تل منيب في الصبراوية .. من عائلة
الع ..
(كفى .. هذا هو طلبنا) .. قالها آخر بحدة من خلفه وهو يلصق أداة حادة في
رقبته ! ! .
انتصب (سالم) في جلسته .. شخصت عيناه .. بدا وكأنه تمثال من شمع ....
(لابد أن هذه هي العصابة التي طالما حذرني منها شريكي (عرفان شهيد) .. كيف لم
ألحظ الياقات الزرقاء التي يرتدونها ؟ ! .. يا لغبائي .. يا
لنكستي ! ! ..) .. لم
يتنبه (سالم) إلا على صوت أحدهم يوجه الحديث إلى زميل له :
(هل أقود السيارة بدلاً منه ؟) .
(لا .. لا .. حتى لا نلفت الانتباه إلينا ، ولكن وجهه حتى نصل إلى (نهاية
الطريق) ..)

لم يملك (سالم) إلا الاستسلام لتوجيهات الجالس جواره .. وبعد سلوك بعض
الطرق والدروب بدا أمامه مبنى تحيط به الصحراء من كل جانب .. كان عجيباً أن
يكون في هذا المكان مبنى بمثل هذه الفخامة .. لم تخفف هيئة المبنى من إحساس
(سالم) بالوحشة والانقباض الذي كان يزداد كلما دنا من المبنى .

أمام المبنى أوقفوه ، نزع أحدهم مفتاح التشغيل من مكانه ، بينما نزل آخر
ووقف في مواجهة باب السائق ..

(أخرج ما معك يا سالم) .. قالها الثالث من خلفه .

(عَرقي .. قوت أولادي ... لم يكمل (سالم) كلامه .. أَحسّ بالدونية عندما
لكمه أحدهم قائلاً له :

(أي أولاد يا ضائع .. نفّذ يا خسيس !)

أخرج (سالم) حصيلة الليلة من أسفل كرسيه ، وأعطاها لهم .

(وبقية ما تخبئه ، وكل ما في جيوبك)

استسلم (سالم) تماماً ، وبدا على وجهه الإرهاق ممتزجاً بالقهر .. سلّمهم كل ما
طلبوه .

جذبه الواقف بجواره خارج السيارة ، وساقه دفعاً نحو المبنى ..
أجلَسوه أرضاً ، وتحلقوا حوله ..

(سالم .. طبعاً لا تنكر علاقتك بسهاد .. ولعلك لا تعرف أنها صديقتنا ..)

انعقد لسان (سالم) ، ومن فرط دهشته لم ينبس ببنت شفة .

(تحت أيدينا صور لك معها وتسجيلات بصوتك .. أتحب أن تطلع عليها ؟)

(الله أمر بالستر)

(نعم .. ونحن نستر عليك .. إذا وقّعت على هذه الورقة !)

أمسك (سالم) بالورقة .. تفحصها .. تردد قليلاً ، ثم قال :

(وهل إذا تنازلت لكم عنها أطلقتم سراحي ولم تفضحوني ؟)

(نعم .. وقد نكافئك أيضاً ..)

تناول (سالم) القلم منهم ، ووقّع وهو يتمتم : (هكذا انغلق الباب الذي كنت
أرتزق منه)

تركوه يمضي .. خرج وهو مطأطئ الرأس مثقل الخطى .. وعندما وصل
إلى السيارة نظر إليها بحسرة ، وعاود النظر إلى المبنى ومن به .. ثم مضى وهو

يجر رجليه .. (سالم .. قف مكانك ..) .. صوت حاد مصدره المبنى .. تسمّر
(سالم) على إثره ..
(ارجع بظهرك إلى الخلف !)
رجع بظهره حتى وصل إلى المبنى .. أدخلوه مرة أخرى .. جردوه من
ثيابه .. بدا وكأنهم يضمرون شيئاً آخر ..
في هذه الأثناء لمح (سالم) شبح شخصين خارج المبنى .. تجدد أمله في
النجاة ..
(هل يعملان على إنقاذي .. ؟ !)
ولكن لم يطل أمل (سالم) ، حيث خرج أحد الثلاثة وتهامس مع الشخصين ..
ثم دخل ..
(أبشر يا (سالم) .. لقد قررنا محاكمتك .. محاكمة عادلة) .. ثم دفعه إلى أحد
الأركان !
وبينما ينهار (سالم) ، قام أحدهم ممثلاً للادعاء ، فترافع طالباً الإعدام لهذا
المجرم الوضيع ..
ثم قام آخر ودافع عن (سالم) طالباً إطلاق سراحه ؛ فقد أدى ما عليه ونفذ ما
طُلب منه .. ثم جاء وقت النطق بالحكم ..
وقف (سالم) مشدوهاً يترقب مصيره .. لا يرفع بصره عن وجه الحكَم .. ! !
(نظراً لحاجتنا لجهود (سالم) .. ونظراً لاستجابته وتفهمه .. فقد قررنا أن
يعمل (سالم) على السيارة لحسابنا ، مقابل إطعامه وجبتين يوميّاً .. مع النظر في
أمر تزويجه من صديقتنا سهاد) ..
لم يصدق (سالم) ما سمعه .. قفز من مكانه هاتفاً : (يحيا العدل .. يحيا
العدل .. يحيا العدل) .. أخذ يقبلهم ويعانقهم بانفعال .. لم يكترثوا باحتفاله
الهستيري ، كان واضحاً اشمئزازهم منه ..
دفعوا إليه مفاتيح السيارة .. أدارها .. غاب عن أنظارهم .. كان أول ما فعله
أن ذهب إلى بيت (سهاد) .. قضى معها ما تبقى من ليل .. وعند استيقاظه نزل
ليعمل حسب الاتفاق ..
ولكن .. كانت مفاجأة .. !
لم يجد السيارة ! !

قالوا له : (لقد حضر (عرفان شهيد) ومعه أكبر أولادك ، وقادوها إلى وجهة
غير معلومة .. !)

ثار (سالم) ..

(عملوها .. سرقوها .. سرقوا حق الأسياد .. سرقوا حق الأسياد ....)

.. هكذا صاح (سالم فرحات) .

دراسات أدبية

نجيب الكيلاني ..
رائد القصة الإسلامية المعاصرة
(1)

بقلم : محمد حسن بريغش

مات الدكتور نجيب الكيلاني (رحمه الله) بعد أن ترك تراثاً أدبيّاً ضخماً ،
وظل على مدى أكثر من أربعين عاماً يواصل عطاءه الأدبي حتى بلغت قصصه
أكثر من أربعين قصة ، وبلغت دراساته النقدية والأدبية والاجتماعية ، وأبحاثه
الطبية ، ودواوينه الشعرية هذا العدد أيضاً [1].
لقد عرف الناس (نجيب الكيلاني) أديباً روائيّاً أكثر مما عرفوه طبيباً يتابع
أمراض الناس ، ويشترك في البرامج الصحية الوقائية ، فضلاً عن المداواة .
وكانت رحلته في عالم الأدب رحلة غنية مثيرة ، تستحق من الدارسين والنقاد
وقفات متأنية ، ودراسات متنوعة جادة ، لتوضح صورة النتاج الأدبي الذي تركه
للأجيال من بعده .
أما رحلته في عالم الأدب الإسلامي ، فقد تركت له بصمات واضحة في
الدراسات والإبداع ، مما يجعل أي دارس للأدب الإسلامي المعاصر مضطرّاً
للوقوف أمام تراثه الأدبي ، ليستخلص من تجربته وآرائه كثيراً من السمات التي
تميز بها الأدب الإسلامي المعاصر .
لقد كان من أوائل الذين كتبوا عن الأدب الإسلامي ، وحاولوا وضع القواعد
والسمات المميزة له ، إما عن طريق الدراسات الأدبية ، أو عن طريق كتابة الشعر
والقصة ، ولذا : نرى أن من أوائل كتبه التي نشرها : كتاب (الإسلامية والمذاهب
الأدبية) ، وكتاب (شوقي .. في ركب الخالدين) ، وكتاب (إقبال .. الشاعر الثائر) .
ولذلك : فإن الدراسة الشاملة لأدبه ، ولا سيما لقصصه ودواوينه الشعرية
ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار أنه منذ البداية كان أديباً مسلماً ، يتبنى فكرة ، وينتسب

إلى جماعة إسلامية أخذت على عاتقها الدعوة لتحكيم شرع الله (عز وجل) ، بل إنه
دخل السجن وهو لا يزال طالباً في الجامعة .
وما دامت هذه وقائع حياته المبكرة ، فلا يمكن أن ننظر إلى جميع إنتاجه إلا
من المنظور الإسلامي ، ولا يمكن أن نقبل تبرير أي عمل من أعماله باسم المراحل
والظروف والأجواء [2] . إنه أمر بدهي أن يقع الإنسان في الخطأ حين يجتهد ،
كما أنه من المعروف أن العمل الأدبي لا يكتمل دفعة واحدة ، وإذا جعلنا مقياسنا في
تقويم إنتاجه : المقياس الإسلامي للأدب ؛ فهذا يعني أننا نعترف به أديباً إسلاميّاً منذ
بواكير إنتاجه ، وهي ميزة مهمة له ، وصفة تزيد من قدْرِهِ مهما كانت الأخطاء التي
وقع فيها .
لقد أشار (الكيلاني) (رحمه الله) إلى مثل هذا عندما نقل حديثاً دار بينه وبين
الأستاذ (محمد عبد الحليم عبد الله) الأديب المعروف ، إذ قال له وهو يستلم الجائزة
الأولى في القصة القصيرة :
(أشعر أنك تكتب أحياناً وأنت موثوق اليدين ... انطلق يا رجل)
فأجابه الكيلاني : (إنها ليست قيوداً ... ولكني أحاول أن ألتزم بمبادئى
وقيمي) [3] .
ويزيد الأمر وضوحاً عندما عقّب في إحدى الندوات على الدكتور (رشاد
رشدي) عن موقف الأديب عند كتابة القصة ، وضرورة حياديته ، فقال الكيلاني
(رحمه الله) : (إن الأديب متحيز .. متحيز لفكرة ، لموقف ، لمبدأ ، وهذا لا يتنافى
مع الموضوعية ، إذ إن الأديب مقتنع بادئ ذي بدء بمعتقده وبإيجابيته) [4] .
وفي وقفتنا للتحدث عن الكيلاني في هذه المناسبة : لن أستطيع الإحاطة
بإنتاجه ، ولا ببعضه ، ولن أستطيع الوفاء بحقه ، أو الوقوف على صورة شاملة
لأدبه ، لأن ذلك يحتاج إلى جهد واستقراء لإنتاجه كله ، وتتبع لكثير من الظواهر
الفنية والموضوعية في أدبه ، ولكنني سأكتفي في هذا الموضوع بوقفات عند بعض

المميزات والنقاط التي أضحت في نظري علامات واضحة في مسيرته الأدبية ،
وهي ذات فائدة في تناول أدبه بالدراسة الشاملة إن شاء الله (تعالى) [5] .
إن استعراض آثار الكيلاني تشير إلى إنتاج شعري كبير ، حيث ترك سبعة
دواوين شعرية هي : (أغاني الغرباء) و (عصر الشهداء) و (كيف ألقاك) و (مدينة
الكبائر) و (مهاجر) و (أغنيات الليل الطويل) و (نحو العلا) ، وهي متفاوته في
ميزاتها الفنية ، ولكنها جميعاً تتسم بالأسلوب الواضح العذب ، الذي ينبض
بالصدق ، ويتميز بالعفوية ، ويمتلئ بمعاني العزة والقيم الإنسانية الأصيلة ، إنها تعبر عن
الصورة الإنسانية الكريمة التي تنفض عنها آثار الزيف والظلم ، وتأبى الاستسلام
للقهر والجهل والعبودية ، وتنهض لاستجلاء الصورة التي كرم الله بها هذا
المخلوق ، يقول في إحدى قصائده :

أنا يا زهرتي الفيحاء سارٍ لى جمر التوجس والعناءِ
أصارع حمأة الأحزان ليثًاً وأقهر كل أوهام الفناءِ
ولا أعنو لطاغية تولَّى يمزق شمل أحلام الهناء
ولم أسكر بمال أو نفوذ ولا اعتَكَرَتْ بمأثمهم سمائي
وأسقيت الجهاد رحيق عمري على شوق إلى يوم النداءِ
فحب الله في قلبي ربيع تألق بالطهارة والصفاءِ
لذات الله قد سجدت جبيني فكيف لغيره يرقى انتمائي
أرى في كنفه ألقَ التسامي وأسبح في بحار من نقاءِ
أهيم مُحَرَّرًا من كل قيد يبارك مقصدي حلو النداءِ
فلا دنيا لتوهن من شموخي ولا طمع يزلزل كبريائي [6]

إن اهتمامه بالشعر سبق اهتمامه بالقصة [7] وغيرها ، وكانت قراءاته
الشعرية مبكرة ، فلقد كان منذ صغره يحلو له أن يكون شاعر الحفل في المناسبات
الشائعة في مصر ، ولذلك اهتم بقراءة كثير من الدواوين الشعرية ، وحفظ الكثير
من الشعر ، وإن كانت هذه القراءات تنصب في أكثرها على دواوين الشعراء
الحديثين ، أمثال : البارودي ، وعلي الجارم ، وشوقي ، وحافظ إبراهيم ،
وإسماعيل صبري ، والبوصيري .. وغيرهم [8] ، ولعل هذه القراءات التي كان
أكثرها من الشعر المعاصر هي التي جعلت شعره يتسم بالسهولة والوضوح

والبساطة ، وقلما نجد في شعره صورة معقدة ، أو لفظاً بعيداً عن الوضوح
والمألوف ، وبالإجمال : فإن ما تركه من شعر يدل على موهبته الشعرية ، ويدفع
للوقوف عند هذه الدواوين السبعة .
أما في ميدان القصة التي أخذت فيما بعد جلّ اهتمامه : فلقد ترك لنا تراثاً
ضخماً ، ما بين قصة قصيرة جمعها في مجموعات [9]، وقصة طويلة جاوزت
الأربعين كتاباً ، وكانت متنوعة في موضوعاتها وأزمانها ، فمنها القصة التاريخية ،
ومنها القصة الاجتماعية ، ومنها القصة الواقعية السياسية ، ومنها القصة التي تُعنى
بقضايا الشعوب الإسلامية .
ولعل الكيلاني قد فتح باباً ، وكان يخط طريقاً جديداً في عالم القصة ، عندما
كتب عن مشكلات الشعوب الإسلامية بأسلوب قصصي ممتع ومحكم ، وطرح
قضايا هذه الشعوب ، أو لفت الأنظار إليها ، في وقت كانت تهيمن على المجتمع
أفكار الاشتراكية ، والشيوعية ، والمعسكرات السياسية الممثلة لها ، وكانت القضايا
الإسلامية ومشكلات الشعوب الإسلامية غائبة عن مسرح الأحداث [10]، حينها
كتب هذه القصص التي كان لها وقعها ولا سيما عند الشباب المسلمين : (ليالي
تركستان ، وعذراء جاكرتا ، وعمالقة الشمال ، ثم : الظل الأسود) ، وكان الكاتب
موفقاً عندما اختار موضوعات قصصه بحيث تواكب الخط الممتد من الشمال
الشرقي إلى الجنوب الغربي ، ومن الشرق إلى الغرب ، فكأنه أراد أن يرمز بهذه
القصص لحاضر العالم الإسلامي ومشكلاته وامتداده ، وتعالج قضية الإنسان المسلم
الذي يقف أمام الطغيان ليدافع عن حريته وكرامته ووجوده ، ويحمي عقيدته التي
تمثل القيم الإنسانية كلها [11].
وكانت أهمية هذه القصص تأتي من كونها تمثل مرحلة من مراحل التطور
التاريخي والفني للدكتور الكيلاني ، فقبل هذه القصص كان متردداً في كتابة القصة

الإسلامية إلا بصورتها التاريخية : (نور الله) ، (قاتل حمزة) ، ولكنه خرج عن هذا
التردد بصورة من الصور ، حين اختار قضايا معاصرة بعيدة عن العالم العربي
(روسيا ، إندونيسيا ، نيجيريا ، الحبشة) فكتب عنها ، محققاً هدفين : أولهما :
إسهامه في مجال القصة الإسلامية ، وتقديم تجربة جديدة في هذا التوجه ، وثانيهما :
عدم إثارة من يهيمن على دفة السياسة والفكر والأدب في بلاده .

وهذا يؤكد بأن الكيلاني كان في بداياته القصصية مَعْنيّاً بترسيخ قدميه ،
وتقديم نفسه ككاتب قصة مصري عربي يجيد كتابة الرواية ، ويقف مع كتاب القصة
الآخرين : (نجيب محفوظ ، وباكثير ، والسحار ، وعبد الحليم عبد الله ، والشرقاوي ، ويوسف إدريس .. وغيرهم) .

ولهذا : لم تكن قصصه الأولى تختلف عن قصص غيره إلا في نسبة مشاركة
المرأة والجنس في القصة ، أو في طريقة اختيار الموضوع والشخصيات ، وتناول
المشكلات ، دون أن يتميز عن الآخرين بتصوره ، ولكنه ظل مثل غيره يهتم
بقضايا الاستغلال ، والظلم ، وانعدام تكافؤ الفرص في المجتمع ، واختار
موضوعاته من الريف بشكل خاص وألح على مسألة استغلال المُلاك للفلاحين ،
وإبراز الفروق الطبقية بين الفلاحين وأصحاب الأراضي ، وكذلك تحدث عن
مشكلات الريف الصحية ، وما يرافقها من بؤس ومشكلات أخلاقية واجتماعية ..
إلخ .

وتحدث عن الفقر وما يرافقه في المجتمع المصري بعامة ، وفي الريف بشكل
خاص .

هذه القضايا التي عرضها الكيلاني في رواياته كانت مشتركة بينه وبين جميع
كتاب القصة ، وإن كانت طريقته تختلف قليلاً أو كثيراً عن هؤلاء الكتاب ، لقد ظل
متمسكاً بتقاليد القصة السائدة آنذاك ، ومتردداً في الوقت نفسه في حجم التقيد بهذه
التقاليد في قصصه ، ويبدو ذلك واضحاً في قصصه ، مثل : (الطريق الطويل ،

ليالي السهاد ، رأس الشيطان ، الربيع العاصف ، الذين يحترقون ..) [12] .
ومع هذا : فإن المسيرة الطويلة للدكتور الكيلاني في عالم القصة بشكل عام
والقصة الإسلامية بشكل خاص تجعله رائداً للقصة الإسلامية بحق ، ولا يؤثر في
هذه الريادة كونه مرّ بمراحل مختلفة ، وتأرجح بين الرضوخ لتقاليد القصة
الغربية ، أو الالتزام بالتصور الإسلامي للقصة : في عرضه للموضوعات ،
وطريقة تناولها ، ورسم شخصياتها ، لأنه ظل مستمراً ودؤوباً في طريقه ، مدافعاً عن القصة
الإسلامية ، مبرراً لتقصيره ، أو عدم تقديمه للنموذج الإسلامي : (ولم يكن من
المنطقي أن نثب فجأة إلى منطقة الكمال بين عشية وضحاها ، إن الأديب ينمو
ويتدرج ببطء عبر التجارب والأحداث ، تنضجه رويداً رويداً ، وإلا احترق ،
واحترق قلمه) [13] هكذا اعتذر عن عدم التزامه الواضح بالتصور الإسلامي .
وكانت مسيرته هذه وسط عالم يعج بالطغيان السياسي والفكري ، وهيمنة
لأصحاب الاتجاهات العلمانية وأحياناً الإلحادية على وسائل الثقافة والإعلام ، ولم
يكن بمقدور الكيلاني كما يقول أن ينفذ من خلال ذلك بالصورة التي يتمناها ، ولا
سيما أن الكُتّاب حينذاك كانوا يتهيّبون من كلمة (إسلام) ، وكان يسيطر على قافلة
النقد حشد من الشيوعيين ، ولم يكن هناك وجود للنقد الإسلامي [14] .
ويمكننا أن نضيف بعض العوامل الأخرى التي منعته من تقديم القصة
الإسلامية آنذاك ، مثل عوامل : النشأة ، ومؤثرات البيئة ، والمجتمع ، والثقافة التي
تلقاها في صغره (الحكايات والقصص الشعبية ، وقصص ألف ليلة وليلة ، وروايات
التاريخ الإسلامي لجورجي زيدان ، وكليلة ودمنة ، وكتب طه حسين ، وتيمور ،
والحكيم ، والمازني ، والعقاد ، والرافعي ، والزيات ، والجارم ، والمنفلوطي) [15] .
هذه القراءات تغذي الناشيء بلون محدد من الأدب ، وبتصور جديد في
الحياة ، يبتعد كثيراً أو قليلاً عن التصور الإسلامي ، ولكنها لا تكوّن لديه التصور

الصحيح ، إنه كان يفتقد التصور الصحيح المنبثق عن المصدرين الأساسيين
للإسلام : كتاب الله وسنة رسوله ، ولا يكفي التوجه العاطفي والنفسي والفكري
للشاب نحو الإسلام ، ولا تكفي النية الطيبة إن لم يأخذ هذا التوجه مضمونه الحقيقي
من المصادر الأساسية والدراسات الشرعية .
ولعل هذا الأمر يثير لدينا قضية مهمة ، تبدو عامة عند كثير من الأدباء
والكتاب المسلمين ، الذين يتحدثون عن الأدب الإسلامي ، أو القضايا الاجتماعية
والفكرية ، أو يمارسون النقد ، أو الإبداع ، أو (التنظير) .
إن كثيراً من هؤلاء يبدو فقيراً في زاده الشرعي ، لأنه يتعامل مع هذا الأمر
من منطلق الاختصاص ، ويخضع في ذلك للتقسيم المتعسّف الذي يتبناه الاتجاه
العلماني المهيمن على الفكر والأدب والتربية ، حيث حصروا الأمور الشرعية كلها
ضمن عملية التخصص ، مثلها مثل دراسة الفن ، أو الاقتصاد ، أو الرياضة ، أو
الفيزياء ، بمعنى أنها لا تخص إلا من يود دراستها باختياره من أجل التخصص ،
وزادوا إمعاناً في الاستهانة بالعلوم الشرعية عندما أطلقوا عليها مصطلحات جديدة
عامة مثل (التربية الإسلامية) لطمس حقيقة هذه العلوم ، ولإخراجها من دائرة العلم
إلى دائرة التهذيب النفسي ، والمحاولات التربوية ، وبذلك لم يعد هناك مجال للقول
بعلم التفسير ، أو الحديث ، أو الفقه ، أو التجويد ، أو ... كلها نوع من التربية ،
تقف بإزاء (التربية الفنية) أي : الموسيقى ، والرسم ، والنحت ، والرقص ، و ...
و (التربية الرياضية) و (التربية الاجتماعية) .. إلخ .
وكذلك فهذا يعني أن التربية الإسلامية جزئية بسيطة تهم جانباً أو بعض جانب
من الإنسان ، فضلاً عن إقصاء هذا المصطلح عن أن يشمل الرؤية الإسلامية لتربية
الإنسان تلك التربية الشاملة .
نعم ، إن هذه المشكلة عامة عند كثير من الكتاب والأدباء الإسلاميين ، وأعني
بها ضآلة الفهم الشرعي ، بل الجهل بفقه الإسلام في الأمور التي يتخصص كل

كاتب فيها ، ولذلك نجده يردد الآراء الغربية بعد طلائها بمسحة إسلامية ، ومقياسه
في ذلك نظره الفكري ، لا دليله الشرعي [16] ، وينتج عن هذا : اتجاهات وآراء
بعيدة عن الإسلام ، وفي الوقت نفسه تصبح عالة عليه ، وقد تؤدي إلى انحرافات
خطيرة على الأجيال المقبلة .

ولذلك لا نستغرب أن تكون الصورة غير واضحة عند الدكتور الكيلاني وهو
يكتب القصة مادامت ثقافته وقراءته من هذه المنابع التي ذكرناها ، ولم يكن بينها
ثقافة شرعية أصيلة تحوطه ، وتشكل له سوراً يحمية من الانزلاق إلى مواقع
الشبهات والخطأ .

ولقد كان الكيلاني واضحاً في هذا حين قال : (وبعد أن رسخت قدمي لحدّ ما
على طريق الأدب فكرت في تنفيذ ما تحمست إليه أي الأدب الإسلامي
وكتبت عنه ، لم يكن الموضوع بالسهولة التي يظنها البعض) [17] .

ولا يعني هذا أن الكيلاني لم يكن في هذه المرحلة في قصصه إلى جانب
الأخلاق ونزعات الخير ، والتماس المناسبات لكي يشير إلى صورة من صور
الإسلام في الشخصية أو السلوك .

---

(1) لقد ترك حوالي أربعين كتاباً ما بين قصة طويلة أو مجموعة قصصية ، وسبعة دواوين شعرية ، وله عدة كتب في الدراسات الأدبية ، وكان قد اشترك في كتابة كثير من البرامج الصحية التي قدمت في محطات التلفزيون الخليجية باسم (سلامتك) انظر رواية (أهل الحميدية) قائمة كتب المؤلف .
(2) انظر : كتابه (رحلتي مع الأدب الأسلامي) ص46-57 .
(3) السابق : ص56 .
(4) السابق .
(5) لقد كتبت في وقت مبكر عن الدكتور الكيلاني قبل أن يعرفه الكثيرون ممن يتحدث عنه اليوم ، ونشرت ذلك في عدد من المجلات ، ثم ضممته إلى موضوعات كتابي (في الأدب الإسلامي المعاصر) الذي صدر في 1402ه1982م ، ثم صدر كتاب (في القصة الإسلامية المعاصرة) وفيه فصل عن الكيلاني ، ثم صدر كتاب (دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة) وكله عرض ودراسة عن الكيلاني .
(6) ديوان مهاجر ، قصيدة (الانتماء) .
(7) انظر : كتابه (تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية) ص16 ، 17 .
(8) رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص13 .
(9) مثل : (عند الرحيل ، العالم الضيق ، موعدنا غداً ، الكابوس ، فارس هوازن ، دموع الأمير ، حكايات طبيب) .
(10) تجربتي الذاتية ، ص47 .
(11) في الأدب الإسلامي المعاصر ، للكاتب ، ص213 .
(12) انظر : (نجيب الكيلاني والقصة الإسلامية الحديثة) في كتاب (دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة) للكاتب .
(13) رحلتي مع الأدب الإسلامي ، للكيلاني ، ص28 .
(14) المصدر السابق .

(15) تجربتي الذاتية ، للكيلاني ، ص11-16 .
(16) انظر : كتاب (الأدب الإسلامي أصوله وسماته) للكاتب ، ص10-16 ، وكذلك ص50-79 ، وانظر : فصل (الدكتور الكيلاني بين القصة والمسرح) ص 147 ، في كتاب (دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة) للكاتب .
(17) رحلتي مع الأدب الإسلامي ، للكيلاني ، ص38 .

مقال

دعوة للتعقل الإعلامي

بقلم : د . محمد البشر

الغلو الإعلامي ظاهرة يلحظها المتابع للوسائل الإعلامية في الوطن العربي
بكل أنواعها المقروءة والمسموعة والمرئية ، والتعبير بكلمة (الغلو (لم يأت جزافاً أو
رديفاً أو قياساً على مظاهر الغلو في الدين ، بل هو حقيقة يدركها كل من وهبه الله
قلباً عَقولاً يميز به بين الوهم والحقيقة ، وبين الزيف والواقع ، إن هذا الإعلام الذي
نقل إلينا مصطلحات (الغلو) و (التطرف) و (الأصولية) ، وألبسها لبوساً خاصّاً
مفصلاً على القضايا والمشكلات التي تعاني منها المجتمعات العربية ، وروّج لها
لإقناع الجماهير بالمعنى المراد بها ، والمفهوم الذي اختير لها ، كان هو أول من
وقع في فخ المغالاة من حيث التعبير عنها أو العمل بها .

فالغلو ليس في الدين فقط ، وليس في الفكر فقط ، بل يكون أيضاً في الإعلام ، حيث يتجلى هذا الغلو في أوضح صوره وأشكاله .

وفي صور هذا (الغلو الإعلامي) تحريف النصوص التي ينقلها هذا الإعلام
على لسان العلماء والدعاة والمصلحين في الوطن العربي ، وغاية هذا التحريف
المتعمد أن ينسجم مع السياسة العامة لتلك المؤسسة الإعلامية ، أو لا يتعارض مع
السياسة التي تملى عليها ، ومنهج تحريف النصوص يكون بتحوير المعنى الأصلي
لها ، أو بتر أجزاء منها حتى تتفق مع السياق العام المراد لها ، وهذا النوع من الغلو
يكثر بشكل ملحوظ في الصفحات المخصصة للتحليل الإخباري ذي الصبغة
السياسية في الصحافة المقروءة بطريقة تبعث على النفور والتقزز .

ومن صور هذا الغلو : (التصفيق الإعلامي) في المحافل والمناسبات السياسية ، ذلك التصفيق المثقل بكل معاني التزلف والمراء والمداهنة الذي يجيده فئام من

الإعلاميين حملوا على عواتقهم بزعمهم القضاء على الغلو بكل مظاهره في
المجتمعات العربية ، الذي يأتي غالباً في سياق حديثهم عن الغلو في الدين وحربهم
له ، وكأن الغلو لا يكون إلا في الدين فقط ، ولسنا نرى بوناً شاسعاً وفرقاً كبيراً بين
من يغالي في حب شيخه وتقديسه والتمسح بجبته ، وبين من يتزلف إلى (الزعيم)
ويعلق صورته على صدره أو يتسول على بلاطه ويستعطي عند بابه .

ومن صور هذا الغلو : التهميش المقصود للمشكلات التي تعاني منها الأمة
العربية ، وتجاهل القضايا الكبرى الموغلة في جذور المعاناة ، والاشتغال بقضايا
فرعية تأتي في ذيل اهتمامات المجتمع .

ومن صور هذا الغلو الإعلامي أيضاً : المبالغة في تحليل الخبر ووصفه
والتعليق عليه إذا وافق هوى في نفس صاحبه ، واستغلال ما يصدر من الجهات
المختصة من قرارات وبيانات في الترويج لفكرة مكبوتة وضميمة موبوءة تبحث
عن متنفس لها يبرر نشرها والتصفيق لها ، فتجعل من هذه القرارات والبيانات
الرسمية مطية لها يتصدر تعليق صاحبها عليها الصفحات الأولى لتزويقها وتضليل
العامة بها ، وهذا منهج تقليدي قد حذقه أقوام وجدوا أنفسهم فجأة يتسنمون منابر
الإعلام ومنافذ الفكر بعد أن كانوا مرتكسين في حمأة الفن أو الرياضة ، وإذا بنا
نراهم يمثلون طلائع الصفوة والنخبة التي فرضت على المجتمعات العربية فكراً
عقيماً أجوف لا يعرف ثابتاً ولا يفقه متغيراً .

إنها دعوة للتعقل الإعلامي في مجتمعاتنا العربية للقضاء على مظاهر الغلو في
أجهزته بكل صورها وأشكالها ، دعوة تنادي بترميم شامل للواجهات الإعلامية التي
عفى عليها الزمن ، والتي سودتها الشعارات ، وطمست معالمها التيارات التي
عصفت بالأمة العربية سنين عدداً ، وما الروائح المنبعثة من هذه الوسائل إلا دليل
على امتزاج قيء أصحابها بمداد أقلامهم .

إن لوازم العقل ، ودواعي الفطرة ، ومتطلبات المرحلة ، ومنطق الحاجة ،
واستقراء الواقع ... كل ذلك يحتم استئصال الفكر الأجوف الذي عشش وفرّخ في
أجهزة الإعلام العربي ، واستبداله بفكر متجذر في عقيدة الأمة ، يحمل الهم ويدرك
الغاية ، يستجيب للواقع ويتفاعل مع الحقيقة ، ليسمو بالمجتمع ويحرر العقل العربي
من أوشاب الزيف وأدران الجاهلية .
هذه مقتضيات الدعوة إلى التعقل الإعلامي الذي تفرضه ظروف المرحلة
الراهنة ، ونقيضها يجعل من هذا الإعلام اليوم وغداً ومستقبلاً عبئاً على المجتمعات
العربية وعالة على شعوبها .

المسلمون والعالم

السلطة الوطنية

المسافة بين ضم السين وفتحها !

بقلم : د .عبد لله عمر سلطان

هناك مثل أمريكي يقول : (أحسن اختيار كلماتك ؛ فإنك لا تدري متى تضطر
إلى بلعها) ، ومادام أن هناك غراماً متبادلاً بين السلطة الوطنية الفلسطينية وكل ما
هو أمريكي فإن من الحكمة أن يتأمل رأس السلطة هذه المقولة علّه يستفيد شيئاً من
هذه العلاقة الخطرة التي تشبه علاقة الصداقة المفاجئة بين الذئب المفترس والحمل
الغبي .. ، ومناسبة لفت النظر هذا يرجع بالدرجة الأولى إلى تلك التصريحات
العنترية التي لا زالت رموز السلطة الوطنية تطلقها بين الحين والآخر على الرغم
من أن القاصي والداني عرف حجم هذه القيادات ، كما أن الشعب الفلسطيني بكل
قطاعاته يدفع يوميّاً ثمن مسلسل الأخطاء الفادحة لقيادة أصبحت تتقن دوماً اختيار
الأسوء وممارسة الفاحشة السياسية في وضح النهار ..
لقد ذكر الشاعر الفلسطيني المسؤول عن جهاز الثقافة في منظمة التحرير
الفلسطينية (محمود درويش) في محاضرة له بعمّان قبل أسابيع أن البعض : (يريد

من الفلسطينيين أن يتخلوا عن ذاكرتهم التاريخية خلال عملية المفاوضات) ، ولا
شك أن درويش وهو شيوعي سابقاً ، ليبرالي لاحقاً يعبر عن حالة من (القرف)
تنتاب حتى الذين لا يؤمنون بثوابت الأمة وقد يشاركون السلطة الحالية بعضاً من
المسؤولية التي آل إليها الحال بعد اتفاق أوسلو ..

لقد أعلن في يوليو 1995 عن توصل الطرفين الصهيوني والفلسطيني إلى
اتفاق تنسحب بموجبه قوات الاحتلال الإسرائيلية عن بعض المدن الآهلة بالسكان
في الضفة الغربية المحتلة حسب اتفاق (أوسلو) ، مما يمهد السبيل لإجراء انتخابات
(لم تحدد هويتها أو عدد المشاركين من ناخبين أو مرشحين ، حيث لازالت إسرائيل
تفكر في كل هذه التفاصيل) بعد شهور من الانسحاب ، وعلى الرغم من أن انسحاب
إسرائيل من أجزاء من الضفة الغربية المحتلة يشكل حدثاً أكبر بكثير من انسحاباتها
الاستعراضية السابقة من غزة أو أريحا ، إلا أن الإعلان لم يُصاحَب هذه المرة بتلك
الحملة البهلوانية عبر أجهزة الإعلام العربي ، حيث إن كذبة (أوسلو) لا تزال عالقة
بالأذهان ، كما أن الحشد العاطفي والكلام الرخيص المنمق الذي وعد به (مسوقو
التطبيع) يترجم حالياً إلى مأساة جديدة يدفع الفلسطينيون ثمنها ..

وعلى الرغم من وجاهة المثل الأمريكي السابق ، إلا أن عرفات أصر على أن
يدشن الاتفاق بتصريح فولكلوري يذكر بأيام المد الثوري والتصريحات النارية ؛
فبعد يومين من الإعلان عن الاتفاق صرح عرفات في جنيف : أن الانتخابات
الفلسطينية لن تجرى قبل انسحاب إسرائيل من كل مدن وبلدان وقرى ومخيمات
الضفة الغربية ، وعلى الرغم من أن عرفات سيبتلع هذه الكلمات لاحقاً كما ابتلع ما
هو أكبر منها في السابق ، إلا أن النخب السياسية التي يمثلها تعرف حتماً أنه حتى
تلك التصريحات التي لا زالت الطبقة الحاكمة ترى أنها للاستهلاك المحلي لم تعد
تحظى حتى بقبول المستهلكين اللذين يحيون بالإذلال والدونية من تصريحات

رغوية كهذه ، في الوقت الذي يكرس الجانب الإسرائيلي مطالبه على أرض الواقع
بدعم كامل من الولايات المتحدة ، وبانهزام متعدد الجبهات على الساحة العربية .

لماذا لم يحتفلوا بالانسحاب الجديد ؟

عندما زار الكاتب الفلسطيني (إدوارد سعيد) لندن وألقى محاضرة فيها ، طالب
السلطة الوطنية الفلسطينية أن تبادر بشجاعة وتعلن على الملأ عجزها عن مواصلة
الطريق المظلم الذي قادت إليه شعبها ، وأن تبادر إلى احترام شعبها وتنشيء حواراً
داخليّاً للخروج من مأزق الحل الهزيل الذي أصبح وصمة عار في مسيرة القضية
الفلسطينية ، تتم تصفيتها بكل سهولة وبمباركة (سلطة وطنية) (بضم السين وليس
بفتحها وإن كان الفتح يلائم (فتح) هذه الأيام) فالبطالة في عهد عرفات زادت عن
الستين بالمئة وأحلام (سنغافورة الشرق الأوسط) ثبت أنها أحلام ثقيلة الظل ،
ووزير الإعلام في سلطة الحكم الذاتي يمنع من الدخول إلى مناطق محتلة ويظل
ينتظر في سيارته أربع ساعات ثم يضطر إلى العودة من حيث أتى ، هذا فضلاً عن
رفض إسرائيل حتى لحاشية عرفات بالدخول ، ورفضها انتقاله شخصيّاً دون إذن
ولي الأمر الإسرائيلي ، أما المشروع الوطني القائم على الاحتفاظ بالأرض
والصلاحيات والسيادة : فقد ذهب أدراج الريح ؛ فسلطة عرفات لا تتمتع من مظاهر
السيادة سوى بفرش السجاد الأحمر للضيوف وتقديم عصير البرتقال الفلسطيني بدلاً
من ذلك المصنوع في حيفا ! !

لقد أفرزت مرحلة ما بعد اتفاق (أوسلو) حقائق صارخة تجعل من الاحتفال
بهذا الانسحاب لو تم كابوساً آخر تسعى إسرائيل لتجريعه لكل الفلسطينيين ، لا سيما
أولئك الذين رضوا بالدنية وساروا وراءها لاهثين .

ولن نستطيع أن نعدد المكاسب والمواقع التي أنجزتها دولة الصهاينة منذ
(مدريد) ، لكن يكفي التذكير ببعض المعالم المهمة .

ظلت (القدس) مربط الفرس والنقطة الأصعب في المفاوضات ، ومنذ إعلان

(أوسلو) وحتى الآن ، استطاعت إسرائيل أن تغرس مخالبها وأنيابها في محيط
الأقصى ، وتوج ذلك بقرار مصادرة 53 هكتاراً من الأراضي المحتلة لبناء
مستوطنات جديدة ، واليوم فإن إسرائيل تفتخر وتعلن أن القدس مدينة يهودية ؛
فسكانها اليهود يمثلون 75% من مجموع السكان في ظل سياسة مزدوجة بتهجير
سكانها المسلمين عبر جعل الحياة المعيشية لا تطاق (50 ألف غادروها خلال
السنوات الماضية) ، أو عبر إعطائهم الجنسية الإسرائيلية وبعض المميزات التي
تكفل ولاء هؤلاء لدولة صهيون .

إسرائيل تعلن بكل وقاحة على لسان (بنيامين بن العازر) وزير الإسكان :
(بأنها ستصادر 120 هكتاراً لبناء ثلاثين ألف وحدة سكنية ، لأن الأمر يتعلق
بالصراع على مستقبل القدس ولا يمكن لأي شخص أن يملي على إسرائيل موقفاً
حيال تصرفها على أراضيها التي تقع تحت سيادتها في القدس) .

ومقابل التنفيذ الفعلي لسلب القدس وسرقتها وتهويدها : لا تجد التيارات
الفلسطينية من رد فعل سوى جعجعة مؤتمر قمة سرابي سرعان ما تبخر بعد أن
أعلنت إسرائيل (تجميد) قرارها ، فقرر الأشاوس (تجميد) مشاعر الأمة وإلهاءها
بصراعات جانبية تساهم في تخفيف درجة حرارة الشعوب الملتهبة ! !

لقد انتهجت الصهيونية سياسة ثابتة تجاه مدينة القدس منذ عام 1948م حيث
صادروا في البداية ثلث مساحة المدينة ، وبعد عام 1967م صادروا ما
يقارب 80 % من مساحتها ، ومنذ اتفاق (أوسلو) حتي الآن استمرت
إسرائيل في المصادرة والسرقة بمعدل 1081 دونماً شهريّاً بعد أن
وصل إلى 232 دونماً أيام مؤتمر مدريد .

لقد أعلن (فريح أبو مدين) في 12/5/1995م (أن السلطة الفلسطينية تشعر
بعجز اتفاق (أوسلو) وقصوره ولا سيما بالنسبة لقضيتي الأسرى والقدس) ومبارك
علينا هذا النبأ السار بأن هناك (شعوراً) لا يزال يسري في أوصال السلطة الوطنية
مقابل المخطط الصهيوني المستمر ! !

استمر الاستيطان اليهودي في فلسطين منذ الاتفاق حتى الآن ، ولابد أن نذكر
أن بعض سماسرة السلام ونخاسته كانوا يطلّون علينا صباح مساء حاثين العرب
على السلام مع إسرائيل قبل أن ينتهي البرنامج الاستيطاني اليهودي وتختفي
الأرض التي تخضع للتفاوض والانسحاب .

وصدق البعض النخاسة ، وردد أركان معسكر التطبيع هذه الشعارات ، لكن
(رابين) أصر على أن يلطمهم لطمة أخرى حين استمر في برنامج الاستيطان دون
اعتبار أو احترام لاتفاق (أوسلو) ، وهي بشهادة مراقب محايد : عملية استمرت
بنفس الوتيرة رغم التصريحات الوثيرة ! (فقد تحولت المستعمرات اليهودية في عهد
(رابين) إلى وحدة واحدة ، تلك الأَمنية وأختها السكانية ، وهو قد وعد بأن تبقى
المستوطنات الأمنية فقط ! ! بل إنه طوّر سياسته لتصبح القدس ومحيطها أكبر
مستوطنة ، بحيث تمتد المدينة المقدسة إلى الشرق حتى البحر الميت ، وإلى الغرب
مروراً بمستوطنة (متسبيه يريحو) ، وشمالاً إلى رام الله عبر مستوطنة (بيت إيل)
وإلى الخليل جنوباً ، مما يعني اقتطاع أهم المناطق وعزل (الهر) العرفاتي وقطع
أوصال الضفة الغربية إلى جزئين : مهم ، ومقدس ، يمثل معظم مناطق الضفة
المحيطة بالقدس ، وأخرى تتركز فيها كثافة سكانية عربية يتولى عرفات وزبانيته
سومها بالحديد والنار ، ومما يدفع إلى هذا : أن إشارات من عرفات بدأت تبرز
مؤخراً تدلل على قبوله برام الله مقراً دائماً لسلطته الخنفشارية .. !

استمر الإذلال المعيشي للشعب الفلسطيني ، ووصلت الأوضاع الاقتصادية إلى
أسوأ مستوى لها مقارنة بوضع الفلسطينيين حتى أيام الاحتلال .

الأرقام تقول إن معدلات البطالة فاقت نسبة 60% ، وأن دخل الفرد وصل
إلى مستوى أنجولا وبنغلاديش ، وأن رجال عرفات من أفراد السلطة وجيشها
منهمكون في عمليات إتجار غير مشروعة في كل شيء من العقار وحتى تجارة

(...) ، وقبل أسابيع ألقي القبض على رجل شرطة قتل زميلاً له ليبيع سلاحه من
أجل أن يأكل ... هذا حال السلطة المحظوظة ، فما حال الشعب ؟ حاله لا يسر ،
لكن المأزق كبير ، ويكفي أن عرفات لم يجد ما يدفعه لأفراد سلطته وجيشه إلا بعد
أن وصله شيء من المساعدة التي وعدته بها الدول المانحة والتي أحجمت عن ضخ
مزيد من الدعم ، خصوصاً بعد أن تبين لها أن الفساد يزكم الأنوف ، وأنه في الوقت
الذي تعيش فيه غالبية الفلسطينيين فقراً مدقعاً : تتمتع قمة الهرم بترف وثراء غير
مشروعين ، وقد نقل مراسل محطة التلفزيون الأمريكية () حنق الشارع في غزة
من تصريحات (سها عرفات) بأنها لا تثق بالخدمات الصحية في غزة ، ولذا : فإنها
وضعت مولودتها في إحدى أرقى مستشفيات باريس ! ! وكأن فرنسا وحدها دون
سائر البلاد العربية والغربية هي التي تملك خدمات صحية يوثق بها ! ، أم إن الثقة
المفقودة هي في الجنسية الفلسطينية ، لذا : لزم ضمان جنسية أخرى (يُعتز بها !)
للمولودة الجديدة ، وذلك بولادتها على الأرض الفرنسية (حق الأرض ، حسب
القانون الفرنسي) ؟
ظهر الانحياز الأمريكي في أبشع صوره خلال الفترة الماضية ، فأمريكا
تخلت عن باقي مظاهر الحياد و (المكياج) الخادع ، وأعلنتها صريحة أنها تساوي
إسرائيل ، وأن إسرائيل تساوي أمريكا ، وقد قامت أمريكا بدور مكشوف وقح في
دعمها لإسرائيل في مصادرة أراضٍ مقدسة ، وصوتت وحدها في مجلس الأمن
لصالح اليهود ، وأصبح زعماء الديمقراطيين والجمهوريين يتنافسون في كسب ود
الصهاينة ، ولم يصل الحال إلى درجة أن يزايد الأمريكيون حتى على الإسرائيليين
أنفسهم إلا في هذه المرحلة ؛ ففي السابق : كان الصهاينة يطرحون طلباتهم ، فتلبي
أمريكا الطلب بطيب خاطر ، أما الآن : فإن (روبرت دول) مرشح الحزب

الجمهوري يطالب بنقل السفارة الأمريكية للقدس فيتمنى عليه (رابين) التمهل
والانتظار .. (لقد ثبت الآن بعد تصريحات كلنتون في مؤتمر (إيباك) أن الأمريكان
أكثر تطرفاً من (رابين) وأنهم صهيونيون أكثر من الصهاينة) كما قال (ماكلرم
رديتش) المعلق البريطاني .

ماذا بعد ؟

في يوم واحد صدرت عدة تصريحات ، وبث تقارير تستحق الإشارة إليها ،
خصوصاً أنها صدرت في ساعات قليلة بعد يوم واحد من الإعلان الأخير .

فقد أعلنت قيادة حزب ليكود أن الاتفاق الهزيل مع عرفات يمكن إلغاؤه ، فقال
زعيم الحزب (نيتانياهو (: إن الأمن في المناطق الفلسطينية يجب أنه يظل في
أيدي اليهود ، وإن قواته لن تؤمر بغزو غزة وأريحا (قوات عرفات أكثر كفاءة في
قمع الفلسطينيين) وأشار إلى أن عرفات سيبقى مسؤولاً عن جزيرتين مكتظتين
بالسكان دون دعم فعلي من إسرائيل .

وأعلن (ياسر عبد ربه) مدير الإعلام العرفاتي : أن محادثات نقل السلطات
إلى الفلسطينيين لم تحرز تقدماً ، وأن الجانب الآخر يدفع بنا إلى الانسحاب من هذه
المفاوضات الجهنمية .

وزير العدل الإسرائيلي يقترح ضم قسم من الضفة الغربية ، وأشار تقرير
لصحيفة (ها آرتس) أن برنامج حزب العمل سيسمح لسلطة عرفات في النهاية
بالإشراف على 18% من مساحة الضفة الغربية فقط !

في الساعة نفسها : بثت وكالة الأنباء أن مستوطنة يهودية جديدة قد بوشر في
بنائها بين (القدس) و (تل أبيب) .

بعدها بساعتين : أنباء عن فشل اللجنة الرباعية الخاصة ببحث عودة نازحي
عام 1967م ... أما نازحو 1948م فليسوا على قائمة البحث .

تقارير من (تل أبيب) و (لندن) عن بدء نشاط جديد بين سلطة عرفات وجهاز
المخابرات الإسرائيلي (شين بيت) والذي اتفق عليه قبل ثلاثة أشهر في (روما)

مهمته الأولى : إسكات الصوت الإسلامي المعارض للهزيمة ، والركوع تحت اللافتة
المكررة (محاربة الأصولية) ...
هذه الأصولية هي الصوت الباقي ، الصوت الضعيف المطارد الذي يدافع
بأسلحته العتيقة وإيمانه الوقاد كل هذا الباطل المتبجح المغرور وتلك العمالة التي
يأبى الله إلا أن يفضحها مع مطلع كل يوم يشرق بنور العودة إلى الله ، فتظهر على
حقيقتها : تجعجع بكونها سُلطة ، بينما تثبت الأيام أنها أوراق وزعامات ومكونات
جمعت في طبق يذكر بسَلطة لا تثير الشهية أو الرغبة في المضي قدماً لتناول وجبة
الاستسلام السامة !

المسلمون والعالم

المعادلة الدولية في البوسنة
وسياسة الترويض على الذل .. !

بقلم : عبد العزيز كامل

جسد وزير الإعلام الصربي حقيقة الصراع في البوسنة عندما قال : (إن
الصرب في معاركهم في البوسنة ، إنما يمثلون طليعة الحرب الصليبية الأخيرة
لاستئصال شأفة الإسلام) !

فهل حقّاً بدأت الحرب الصليبية (الأخيرة) ؟ !

إن هذا ما تنطوي عليه دعوات عديدة تنطلق من أبواق الدعاية الإنجيلية
المتنامية النفوذ في الآلة الإعلامية الغربية ، هي بدأت أو على وشك البدء ليس في
البوسنة فقط ، بل في أماكن متفرقة من العالم .

الساسة يصادقون على حتمية بدء هذا الصراع ، فقد سبق للرئيس الأمريكي
الأسبق (ريتشارد نيكسون)، ورئيسة الوزراء البريطانية السابقة (مارجريت
تاتشر)، و (هارفارد صمويل هانتجتون) أن دعوا إلى مواجهة خطر الإسلام تحت مسمى
(الأصولية) .

والعسكريون يضربون على الوتر نفسه ، ويحذرون من الخطر ذاته .. حتى
إن أكبر مؤسسة عسكرية للغرب تتحدث عن ذلك بلسان فصيح ؛ يعبر عنه المستر
(ويلي كلايس) الأمين العام لحلف شمال الأطلسي (الناتو) عندما قال : (إن حركات
الإسلام السياسي ، باتت تشكل خطراً على الأمن الأوروبي بعد انتهاء الاتحاد
السوفيتي ، لأنها تتخذ من أوروبا والحضارة الغربية العدو رقم واحد ، كما أنها
تعتمد العنف والتطرف منهاجاً مفضلاً في تعاملها مع الآخرين !)
وأضاف : (إنه
لابد من مواجهة هذا الخطر القادم بما يناسبه من الاستعداد) ، ثم اقترح خطة من
شقين لمواجهة خطر الجماعات الإسلامية :

أولهما : أن يقدم الحلف للحكومات التي تعاني من هذا الخطر فوق أراضيها
كل المساعدات العسكرية اللازمة لتمكينها مباشرة وبشكل فاعل من التعامل معه
والقضاء عليه .

والثاني : يتمثل في تشكيل حلف دفاعي (أوروبي أمريكي) بالاشتراك مع
الدول المعرّضة للخطر الأصولي ، بحيث يكون الحلف مستعدّاً للتدخل العسكري
المباشر في أي بلد قد تنجح حركات الإسلام السياسي في الاستيلاء على الحكم فيه)، وهذه التصريحات مشهورة ، وقد نشرت في الجرائد في حينها في 18/4/1995 .

إن مثل هذه التصريحات سواء على لسان الإعلاميين ، أو السياسيين ، أو
العسكريين الغربيين ، لترُدّ في مفهومها ومنطوقها على تهمتي (التهييج السياسي)
و(التسطيح الإعلامي) التي طالما يُعمَز بهما المحذّرون من الأخطار المحدقة بالأمة .

وكما أن للقوى النصرانية المهيمنة على الغرب هذا الموقف المبدئي والثابت
من الإسلام ، الذي أطلقوا عليه اسم (الأصولية !) ، فإن لبقايا القوى الشيوعية
موقفاً مشابهاً من الإسلام ، الذي كانوا يطلقون عليه وصف (الرجعية !) .

ونعود للبوسنة ..

الحكومة البوسنية حكومة أصولية في نظر الغرب والشرق ، وإن قالت إنها
(ديمقراطية) ، ورئيسها (علي عزت بيجوفيتش) أصولي مهما تحدث عن انتمائه
الأوروبي وإيمانه بالتعددية ، ولو تحدث عن غير ذلك حاكموه إلى كتابه (البيان
الإسلامي) الذي أُدخل من أجله السجن سنين طويلة .

والأوروبيون لا يحبون كما قال (ميتران) الرئيس السابق لفرنسا أن يروا دولة
إسلامية في قلب أوروبا ، فما الحال إذا كانت تنتظرهم (دولة أصولية !) ؟ كأنهم لا
يريدون تعكير (الصفاء الروحي) و (الانسجام التاريخي) بين الطوائف المسيحية
الثلاث (الكاثوليكية ، الأرثوذكسية ، والبروتستانتية) التي لم يكن الإسلام سبباً في
نشوب المعارك الطاحنة التي دارت بينها عبر التاريخ ، أما زرع دويلة يهودية أو
نصرانية صغيرة وسط طوفان من الشعوب الإسلامية الكبيرة لتكون بؤرة توتر
وعامل صراع ونزاع ، فإن هذا لا يقلق الضمير المسيحي الحي !

الدعاية الصربية تركز على هذه الخلفية للصراع ، وتسعى لتثبيت قناعة

الغرب ، بأنها تقاتل نيابة عنهم لمنع قيام قوة أصولية في أوروبا ، وأمريكا لا تريد
أيضاً أن تكون مثل هذه الدولة في جوار حلفها الاستراتيجي .
والغربيون كما علمتنا الأحداث يتعاملون دائماً مع الخطر المتوقع قبل أن
يتحول إلى خطر واقع ، وهذه الخلفية الدينية للصراع تتداخل معها خلفيات تاريخية
لها علاقة بمطامع ومطامح معاصرة للدول المعنية بذلك الصراع في البلقان ؛
فالموقف الغربي الذي تمثله الآن إنجلترا وفرنسا وأمريكا وألمانيا يرتكز على
المعطيات التالية :
1- الغرب ساعد في سقوط وتفكيك الاتحاد اليوغسلافي السابق ، الذي كان
رأس حربه يستعملها الشيوعيون في أوروبا الشرقية ضد بقية الغرب ؛ فسقوط هذا
الاتحاد مصلحة للغرب .
2- سيكون من مصلحة الغرب بصفة أشمل ، لو قام على أنقاض الكيان
الشيوعي السابق كيان ليبرالي ديمقراطي ، تحت مسمى آخر ، وليكن الاتحاد
الصربي ، أو صربيا الكبرى ، وهذه هي الصورة التي تطرحها الحكومة الصربية
نفسها فعلاً ، ولا بأس بأن يقوم بجوارها (الاتحاد الكرواتي) أو (كرواتيا الكبرى) ،
الليبرالية الديمقراطية .
3- إن قيام دولة إسلامية في هذا الموقع من أوروبا يمكن أن يهدد هذا الهدف
في المستقبل .
هذا ما يجمع بين مواقف الدول الغربية بصفة عامة ، أما بخصوص فرنسا
وإنجلترا : فيضاف إلى ذلك أنه من الناحية التاريخية كان الصرب دائماً الحلفاء
التقليديين لكل منهما أيام ماضيهما الاستعماري القديم ، وقد آن الأوان لكي يفوا
بالجميل ، ويقفوا مع الصرب في حاضرهم الاستعماري الحديث ، والصرب أيضاً
كانوا حلفاء لهما في الحرب العالمية الثانية ، أما ألمانيا : فقد عانت من موقف
الصرب المعادي لها أثناء تلك الحرب ، ولهذا اختارت الوقوف بشكل جوهري مع
الكروات ، وبشكل مظهري مع المسلمين .

أما الروس : فإن موقفهم يرتكز أيضاً على معطيات ، من أهمها :

1- سقوط يوغسلافيا السابقة كان نذير شؤم لهم وللقوى الشيوعية كلها ؛ لأنها
كانت تمثل رديفهم العسكري وسوقهم الاقتصادي في أوروبا .

2- إذا كانت الرابطة الشيوعية قد انحلت بسقوط الاتحادين السوفيتي
واليوغسلافي ، فلا بأس بالرابطة الأرثوذكسية بين الاتحاد الروسي والاتحاد
الصربي ، وأن تستخدم المطرقة والمنجل الشيوعيان في الطرق على الناقوس
النصراني في كل من (موسكو) و (بلجراد) .

3- وعليه : فإن قيام كيان قوي جديد على أنقاض يوغسلافيا السابقة ، له
علاقات متينة مع الروس ، سيكون تعويضاً لهم عما افتقدوه بسقوط الكيان السابق .

وتأتي مواقف الأمم المتحدة لتتفرع عن هذه المرتكزات الغربية والروسية في
سياساتها تجاه البوسنة ، خاصة وأن (الأمين جدّاً) فيها : أرثوذكسي .

وعلى هذا : فإن كلاً من الأطراف المعنية بالصراع ، تريد أن يظل الكيان
النصراني القوي رابضاً بجوار العدوة القديمة المشتركة : الأمة التركية المسلمة
المنوّمة ، ليحول دون يقظتها ، التي قد تستيقظ بها الأمجاد الإسلامية ، لا في أوروبا
وحدها ، بل في العالم أجمع .

لعل هذه أصول القضية وخلفياتها الأساسية ، وبعد معرفتها .. فإن الباقي كله
تفاصيل .. تفاصيل مرحلية للوصول إلى الأهداف النهائية ؛ فما نشاهده ، وما
نسمعه ، وما نلمسه حولنا .. كله من التفاصيل .

وحتى لا نغيّب في التفاصيل كما هو حالنا في الغالب ينبغي أن نضعها في
سياقها ، ولا ننسى الأصول أو الخطوط العريضة المتفق عليها ، وهذا لا يمنع
بطبيعة الحال من وجود الاختلافات والنزاعات بين الأطراف المتواطئة .

ولا بأس أن نذكر بأبرز التفاصيل التي تبدو الآن في سياقها ، من كل أطراف
(اللعبة) الدولية :

* تبدأ صربيا الحرب في كل يوغسلافيا بهدف إعلان جمهورية (صربيا
الكبرى) ، وتدعم العرقيات الصربية ، وتساعدها على الانفصال عن بقية
الجمهوريات ، ويحتل صرب البوسنة (70%) من أراضي البوسنة ، ويحتل صرب
كرواتيا (30%) من أراضي (كرواتيا) المعارضة لقيام صربيا الكبرى .

* الأمم المتحدة تُصْدر ما يزيد عن 60 قراراً ، يدوس الصرب عليها كلها ،
وتقرر الأمم المتحدة حظر تصدير السلاح إلى الأطراف المتحاربة ، ثم لا يطبق ذلك
الحظر إلا على البوسنة ، بحجة أن رفع الحظر عنها سيطيل من الحرب . وتعلن
لكل الأمم حمايتها لست مناطق في البوسنة وتعتبرها (ملاذات آمنة) وهي
(سربرينيتسا ، وجوراجدي ، وبيهاتش ، وتوزلا ، وسراييفو) ثم تنزع سلاحها ، مع
بقاء خمسة منها تحت حصار شامل من الصرب ، ثم تحاول إقناع العالم بأن حماية
تلك المناطق عسكريّاً من الصرب سيحتاج إلى ربع مليون جندي .

* وتدور الكثير من أحداث مأساة البوسنة في الصراع مع الحصار الجائر من
الصرب ، والحظر الظالم من (الأسرة الدولية) ، ويستمر الحصار أكثر من ثلاث
سنوات نتج عنها نزوح مليونين وثلاثمئة ألف بوسني أي نصف السكان
وتشريد 800 ألف بوسني ، وتوزيعهم على أكثر من 30 دولة ، واغتصاب ما
يقدّر بعشرين ألف امرأة بوسنية معظمهن من القصر ، وفقْد 12
ألف رجل مسلم معظمهم دون الشباب ، مع الاعتقاد بأن أكثرهم قتل
في عمليات إعدام جماعية . وعبر عمليات (التطهير العرقي) يطول
البلاء الصربي 400 قرية ، و22 مدينة ، تمت تسويتها بالأرض
بواسطة الجرارات بعد عمليات النزوح .

* وتتدفق المعلومات والحقائق والبيانات عن المأساة بين يدي دعاة حقوق
الإنسان ، بل إن لدى مراقب حقوق الإنسان ومبعوث الأمم المتحدة في يوغسلافيا
السابقة ما يزيد على مليون وثيقة رسمية تشمل آلاف الشكاوى الشخصية من
الضحايا البوسنية ، ومع هذا لا تتحرك إرادة (الأسرة) الدولية لتمكين المعتدى عليه

من الدفاع عن نفسه ، فضلاً عن أن يدافعوا عنه .
* ينسق حلف الأطلسي مع الأمم المتحدة مسرحية الضربات الجوية ضد
القوات الصربية إذا هُددت الملاذات الآمنة ، ويقوم فعلاً ببعض الغارات (السينمائية)
بعد أن تعطي الأمم المتحدة الصرب المعلومات المسبقة عن زمان ومكان القصف
لتخلي الأرض من تحته ؛ فلا تحدث خسائر في الأرواح الصربية الغالية ! ، ولا
العتاد الصربي النفيس ! ، ومع ذلك تنفذ تمثيلية (الرهائن) لتجسد هيبة الصرب
وخيبة الأمم المتحدة ، وبقاء سلطان روسيا التي أطلقت الرهائن من جنود الأمم
المتحدة .
* يحاول البوسنيون تشكيل قوة عسكرية بجهودهم الذاتية رغم الحصار
والحظر لفك قبضة الصرب من حول عنق (سراييفو) ولكن مبعوث الأمم المتحدة
(يوسي أكاشي) يحذر ، و (بطرس) يحذر ... كل هذا من التفاصيل .
* ومن التفاصيل أيضاً : مواقف الدول العربية والإسلامية وقراراتها وإداناتها
وشجبها ومشاعرها الرقيقة .. ! ثم تقع كارثة سقوط (سربرينيتسا) في يد الصرب ،
ثم تتلاحق وقائع سقوط (كرايينا) في يد الكروات ، فهل تختلف الواقعتان رغم
كونهما من التفاصيل عن السياق الأصلي لمجمل الحدث البوسني ؟
أبداً .. !
أولاً : سقوط (سربرينيتسا) وما يعنيه بالنسبة للملاذات الآمنة الأخرى : عندما
هاجم الصرب مدينة (سربرينيتسا) أول مرة عام 1993م ، وطلبت الأمم المتحدة
وقف القتال ، اشترط الصرب نزع سلاح البوسنيين هناك ، ووافقت الأمم المتحدة ،
وأعلنتها منطقة آمنة تحت حمايتها في أواخر شهر إبريل 1993م ، مما دفع الآلاف
من سكان المناطق المجاورة (غير الآمنة) إلى أن تلوذ بها ، فزاد عدد سكانها من
(370 . 211) نسمة إلى حوالي خمسين ألف نسمة ، وبعد أن جُردت المدينة من
السلاح ، واستلمته قوات الأمم المتحدة ، ورحلت المدافعين عنها ، انسحبت تلك

القوات تاركة قوة هولندية للدفاع عنها ، حتى إذا جاء يوم الهجوم الصربي على
الملاذ (الآمن) ، هربت القوة الهولندية لتتركها فريسة سهلة لجيش همجي مدجج
بالسلاح ، معبأ بالحقد والشر ، وسقطت (سربرينيتسا) في 11/7/1995م ، أو
بالأحرى : سلمتها الأمم المتحدة للصرب الذين قاموا بعد اجتياحها الأهوج بتصفية
المسلمين الذكور الذين تجاوزوا الحادية عشرة ، واغتصاب الفتيات ، وتشريد
الأمهات بطردهن خارج المدينة المنكوبة .

وأتبعت هذه المأساة البوسنية ، بملهاة دولية ، وبدأ المجتمع الدولي في تبادر
الأدوار (الهزلية) على خشبة المسرح العالمي :

فقد قال (جاك شيراك) بعد سقوط (سربرينيتسا) : (على الحلفاء أن يعملوا
لاستعادة (سربرينيتسا) من أيدي الصرب) ثم عاد فقال : (على الأمم المتحدة [بعد
ضياع المدينة] أن تركز على حماية المناطق الآمنة الخمس الباقية) . يعني : دعونا
مما مضى .. !

أما بريطانيا : فإنها قد أعلنت مع بدء الهجوم الصربي أنها لن تسمح بسقوط
المدينة ، وبعد أن سقطت دعت إلى (الواقعية) في التعامل مع الأمر ، وعابت على
فرنسا دعوتها الأولى للتحرك العسكري لإعادة المدينة ، وقال وزير خارجيتها
(مالكولم ريفكند) (اليهودي) : (إذا كان الفرنسيون يريدون عملاً عسكريّاً ، فليتفضلوا
بجنودهم ، أما نحن فندخر جنودنا لما هو أكثر أهمية) ! ! ثم دعت بريطانيا بعد ذلك
إلى الاهتمام بحماية الملاذات الأربعة (وليس الخمسة) من المناطق الآمنة
الباقية .. ! ! أي : إنها صدّقت مقدماً على ابتلاع الصرب للمنطقة المرشحة بعد (سربرينيتسا) .

والرئيس الأمريكي دعا أيضاً إلى استعادة (سربرينيتسا) بعد أن سقطت ،
ولكن أحد مستشاريه صرح بعد ذلك بأن الرئيس ربما أخطأ في التعبير بسبب
الارتباك ! ، والولايات المتحدة لا يمكن أن تدعو إلى شيء لا تستطيع المشاركة فيه

عمليّاً . ! ثم يصدر مجلس الشيوخ الأمريكي قراراً برفع الحظر عن السلاح
للبوسنة ... ولكن الرئيس الأمريكي بعد أيام يقول : (إنه سيعارض القرار) .
وفي نهاية المطاف : ينعقد (مؤتمر لندن) بدعوة من بريطانيا ، لتجتمع فيه
الأطراف وتستمع بإيضاح إلى (أندريه كوزيريف) وهو يبرر ويعلل وجهة النظر
(البريئة) للصرب في اقتحامهم ل (سربرينيتسا) ، وتهديدهم لكل من (جيبا)
و(جوراجدي) بعدها .
ويبدو أن المؤتمرين صادقوا ببراءة أيضاً على هذا التبرير ، فانفض المؤتمر
بعد إسدال الستار دون إصدار أي قرار .
ومع كل هذا تسأل عن رد فعل على مستوى الأمة قوي عملي واحد ، فلا
تسمع ، ولا تحسب ، ولا تدري ، فهل أثمرت سياسة الترويض ؟ !
ثانياً : سقوط (كرايينا) في أيدي الكروات : في الوقت الذي ظهر فيه أثر
حظر السلاح على البوسنيين المسلمين بسقوط (سربرينيتسا) ، ظهرت أيضاً آثار
السماح للكروات الكاثوليكيين باستيراد وشراء السلاح ، فالعملية التي قامت بها
حكومة زغرب لاسترداد أراضيها التي كانت قد استولى عليها الصرب ، لابد وأنها
كانت تحتاج إلى فترة كافية من البناء العسكري القوي ، والذي دلت عليه بوضوح
قدرات الكروات العسكرية الفائقة التي استطاعوا بها أن يحققوا انتصارات سريعة
أدهشت العالم ، ليس لأن الكروات شجعان والمسلمون جبناء ، ولكن لأن الكروات
سُلّحوا والمسلمين جُرّدوا ، على الرغم من أن كلاً منهما يُطبق عليه (دوليّاً) الحظر
الدولي لاستيراد السلاح ، فمن أين إذن سلحت كرواتيا نفسها .. ؟
حتى عام 1991م لم يكن لدى كرواتيا جيش نظامي ، ولم تكن لدى الميلشيا
المقاتلة في ظل الحظر إلا بعض الأسلحة الخفيفة ، وقد ظهر ضعف قواتها في
المواجهات السابقة .
ومنذ ذلك الحين ، بدأت كرواتيا الاستعداد لمعركة تحرر فيها (30%) من
أراضيها التي احتلها الانفصاليون الصرب .

وبعد ثلاث سنوات نسمع عن أن كرواتيا أعدت جيشاً من مئة ألف مقاتل
مسلحين بمختلف الأسلحة الخفيفة والثقيلة لاقتحام (كرايينا) ، بما في ذلك الدبابات
والمدافع الثقيلة والطائرات ، وظهر أن كرواتيا حصلت خلال العامين الماضيين
على الألغام الأرضية والدبابات والطائرات من دول مختلفة من بينها فرنسا ، وأقيم
عرض عسكري في زغرب قبل المعارك الأخيرة لإظهار متانة بناء الجيش
الكرواتي ، ويكشف رئيس الوزراء الكرواتي السر ، فيصف شراء السلاح من
الدول الغربية بأنه كان من (سوق مفتوح) !

ولهذا استطاع الكروات السيطرة على مدينة (كنين) بعد 30 ساعة من بدء
الهجوم على كرايينا ، وفر الصرب الكروات من الأرض التي كانوا يعدونها رمز
الكبرياء الصربي عبر التاريخ ، ويتحقق أول انتصار على الصرب الذين أهانوا
المسلمين ، ولكن بغير أيدي المسلمين حتى لا يعيد فيهم الروح ، وحتى لا يملكوا
توظيفه فيما بعد .

ويبقى الزمام على كل حال بيد الغرب الذين يبدو أنهم أعطوا الضوء الأخضر
للكروات لكي يسووا مشكلتهم .

وتبقى (سراييفو) وأخواتها وحدهم خاضعين للحظر الدولي الصارم على شراء
السلاح ، محرومين من الانتصار لكرامتهم أو الدفاع عن مجرد بقائهم .

وبما أن أبعاد اللعبة وتفاصيلها باتت ظاهرة بوضوح مفضوح ، فعلينا أن
نتذكر أن في الجريمة التي لم تتم فصولاً لم تبدأ ، في كل من (ألبانيا) و (كوسوفو)
و (الجبل الأسود) و (مقدونيا) ، وربما تنشأ مؤامرات مشابهة في أماكن مختلفة من
العالم ضد المسلمين ، قد يحتاج الأعداء فيها إلى ترويض أمتنا على الذل وتدريبها
على الخنوع وتعويدها على اليأس ، لتظل ساكنة أثناء التفرد بالضحية تلو الضحية .

إن المشوار طويل أمام من يريدون الحيلولة بين الأمة وبين استمرار هذا

الترويض ، ومع طول الطريق ، فهناك من يُلقون الأحجار على جادته ، وعلى
هؤلاء نخشى أن يكونوا أطرافاً في (اللعبة) الدولية ، لا ضد الدولة البوسنية فحسب ، بل ضد الأمة الإسلامية .
والانتصار على الصرب ، بل على الغرب ، ليس مستحيلاً مع أمة تلتجئ إلى
الله (تعالى) وحده ، وتسعى بجد في موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ، أمة يخاطبها
ربها من فوق سبع سماوات بقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ (56) يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً
وَلَعِباً مِّنَ الَذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾
[المائدة : 56 ، 57] .

في دائرة الضوء

وقفة مع التنويريين الجدد

بقلم : د . أحمد إبراهيم خضر

1- الاشتباك والرّشد :

مصطلحان استخدمهما التنويريون الجدد في منطقتنا العربية ، ويقصدون بهما على وجه التحديد ما يلي :
أولاً : التعرض للأساس الذي يقوم عليه المجتمع المسلم (القرآن والسنة)
والتشريعات المنبثقة منهما ، وللتاريخ الإسلامي ، وللثقافة العربية الإسلامية
بالدراسة والتحليل والنقد ؛ بغرض إلغاء أو تطوير أو تعديل هذا الأساس إلى
الصورة التي تحرك الكيان الثقافي والاجتماعي للمجتمع المسلم في اتجاه تصوراتهم
الفكرية .
ثانياً : الاستفادة من التصورات الفكرية والمنهجية القديمة والمعاصرة
(والغربية منها على وجه الخصوص) ، والتيارات النقدية في داخل البلاد
وخارجها ، وجهود الغرب في تحسين أدوات الاستقراء والاستنباط والتفكير المنطقي المنظم
للمعلومات ، واختبار الفرضيات ، واستخلاص النتائج في تحقيق الهدف السابق .
ثالثاً : الجرأة في النقد والتحليل ، والجرأة في الإضافة إلى هذا الأساس وهذا
الكيان والحذف منهما بما يتفق مع منطلقاتهم الفكرية .

2- استمد التنويريون الجدد هذه الاستراتيجية من مصدرين أساسين :

أولهما : المحاولات التي قام بها من أسموهم بالمفكرين الأصلاء من الأئمة الدينيين وأساتذة التاريخ والقانون والاقتصاد والحضارة العربية الإسلامية ، بالاشتباك مع أساس المجتمع المسلم وكيانه الثقافي الاجتماعي (على غرار ما فعله كبار فلاسفة التنوير في الغرب في القرن السابع عشر) فخرجوا على الإسلام باسم كسر جموده ، وباسم التسهيل على الأمة والمصلحة والتجديد ، مستخدمين سلاح (الرّشد) أو (العقلانية) بالمفهوم الغربي الذي يعني : الاحتكام إلى معيار العقل وحده في الحكم على الأشياء ، وأسبقية العقل في فهم الحقائق الجوهرية عن العالم عما سواه ، علماً بأن روح عصر التنوير النقدية العقلانية أعلت من قيمة العقل ليقف في مواجهة الإيمان والحقائق المنزلة والسلطة التقليدية والمسائل الروحية .

هذا وقد نجحت محاولات هؤلاء الأساتذة (! !) في تحقيق ما يلي :

أ- الجرأة على التغيير والتجديد في المسائل المرتبطة بالعقيدة الإسلامية الثابتة بالكتاب والسنة .

ب- وضع جميع كتب الحديث والسيرة وجميع ما فيها من الأحاديث المنسوبة إلى النبي تحت شبهة الكذب .

ج- حققت ما سمي بالنهضة الإصلاحية ، التي زعزعت أكبر معقل ديني في العالم الإسلامي عن تمسكه بالدين ، وقربت كثيراً من شيوخ هذا المعقل إلى اللادينيين خطوات ، ولم تقرب اللادينيين إلى الدين خطوة .

د- أدخلت الماسونية إلى هذا المعقل .

هـ- شجعت على ترويج السفور .

وجعلت الزندقة مقابلة لحكم العقل ونظام المنطق ، وجعلت الإلحاد قرين الاجتهاد ، والإيمان قرين الجمود .

ز- صرفت الناس عن التفكير في الدين ، وشجعتهم على قراءة كتب الغرب لالتماس الحقيقة فيها ، وإقناعهم بأنهم لن يجدوها في كتب الإسلام !

ثانيهما : التيارات النقدية المعاصرة في العالم الغربي
: يقول التنويريون الجدد
: (وتلك رؤية التنوير ، لم تكن متاحة أمام فكرنا القومي ! إلا حدسا من قبل ، ولكنها
رؤية تطورت بفضل تفاعل (خلاق) وإيجابي جرى على عدة محاور :
كان أولها : محور التفاعل بين التطبيقات العملية لتيار التحديث في الغرب
والأفكار النقدية القوية التي أنتجها الفكر الغربي نفسه وأدبه وفنونه ذات التوجهات
الإنسانية والأخلاقية والجمالية والاجتماعية ، وكان المحور الثاني هو : التفاعل بين
الفكر الغربي النقدي هذا وبين أقرانه من تيارات الفكر النقدي الإيجابي التي أنتجناها
نحن مع شعوب الثقافات الأخرى القديمة والجديدة في العالم الإسلامي العربي وفي
أمريكا اللاتينية ... وكان المحور الثالث هو : التفاعل بين الفكر النظري في مختلف
العلوم الاجتماعية والطبيعية وفقاً لمختلف المناهج الفكرية الحديثة غالباً (الوظيفية ،
والبنائية ، والهيكلية ، والتركيبية ، والتاريخية الحديثة .. وغيرها) وبين التطبيق
العملي الذي أصبح يزداد اقتناعاً بضرورة الاهتداء بمنجزات تلك العلوم
وتصوراتها) .

3- أقر التنويريون الجدد بالحقائق الآتية :

أولاً : أن تصوراتهم الفكرية عن الواقع الإسلامي للمجتمع لم تكن ناضجة قبل
الثمانينات ، أي : في الفترة التي بدأت فيها الصحوة الإسلامية تترك بصماتها
بوضوح على الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية .
ثانياً : أنهم كانوا يتخبطون في مساراتهم بسبب انبهارهم بالنموذج الغربي أو
النماذج الغربية المتناقضة ومغرياته وهيمنته ومنجزاته .. بين هذا النموذج وما
انبثق منه من فكر وتطبيق ماركسي .
ثالثاً : أن الواقع الإسلامي للمجتمع يمثل كياناً ثقافيّاً واجتماعيّاً خاصّاً ومتميزاً ، وله تاريخه الخاص والمتميز .
وهذه الحقائق التي أقر بها التنويريون الجدد وعلى رأسها : إقرارهم
بخصوصية المجتمع المسلم لم تفدهم في شيء ؛ فهم لازالوا يتخبطون في مساراتهم

بين منجزات الفكر الغربي ؛ بدليل اعترافهم بافتتانهم بالتيارات النقدية الغربية ،
وإن أضافوا إليها بما اعتقدوا أنه منجزاتهم النقدية الخاصة ومنجزات شعوب
الثقافات الأخرى ، ومن ثم : تظل تصوراتهم الفكرية عن الواقع الإسلامي للمجتمع
غير ناضجة ، خاصة وأنها محاطة بسياج عدائي مسلح يمتلك كل سبل الضبط
والتأثير ، وسياج عدائي آخر يمثله التنويريون أنفسهم الذين يرون في هذا الواقع
تهديداً لوجودهم وكيانهم ومراكزهم ومصالحهم وشهواتهم .

4- إن ادعاء التنويريين الجدد بأنهم استفادوا من تفاعلهم بما يصفونه بـ
(الإيجابي والخلاق) ! مع محور الفكر النظري والبناء المنهجي للعلوم الاجتماعية
وللتيارات الفكرية النقدية في الغرب : ادعاء يفتقد إلى الصحة ؛ فالتيار النقدي
الغربي أثبت أن العلوم الاجتماعية علوم أوروبية الصنع عجزت في بلادها عن
إثارة القضايا المتصلة بصميم وجود الإنسان ، وأنها ليست أكثر من مجرد أفكار
فلسفية وقيم ومواقف أخلاقية تخص أصحابها ومجتمعاتهم ، وأنها نادراً ما تعطي
تفسيراً صحيحاً للقضية التي تتعرض لها ، وحتى هذا التفسير أو التناول متعدد
الألوان أكثر منه تفسيراً تحليليّاً ، وفي أحد المؤتمرات التي عقدها العلماء
الاجتماعيون الغربيون قالوا ما نصه : (إن المشتغلين بهذه العلوم لم تكن لديهم القدرة
على متابعة الأحداث المهمة لا في مجتمعاتهم ولا عبر العالم ، كما أن قلة العائد
الملموس من هذه العلوم لم يُمكن أصحابها من تدعيم مراكزهم أو إقناع حكوماتهم
بجدوى بحوثهم التي يشوبها الجدل والافتراضات والتعميمات الفضفاضة التي لا
تستند إلى أساس متين من الواقع ، وقد أدى الشك في هذه العلوم إلى زيادة حدة
السخرية والتهكم اللاذع عليها باتهام علمائها بأنهم يقضون ربع قرن من حياتهم
للبرهنة على حقائق يعرفها الناس من أجل إعطائهم الصبغة العلمية) .

ومن ثم نقول : إن اقتناع التنويريين الجدد بضرورة الاهتداء بمنجزات هذه
العلوم أو حتى بتصوراتها يكشف عن قصور أو عدم فهم للتيارات النقدية الغربية
التي يدعون أنهم يتحاورون معها ، أو أنه اقتناع كاذب يحركه فقط موقفهم العدائي
من منجزات الصحوة الإسلامية من ناحية ، أو إدراكهم للدور الذي حدده أتباع (سان
سيمون) (أوجست كونت ، وبازار ، وإنفانتان) لهذه العلوم بأن تزيح الدين لتقبع هي
على قمته .

5- وأهم من كل ما سبق ، الآتي :

أولاً : إن المصطلحات والمفاهيم التي يستخدمها التنويريون العرب القدامى
والجدد ، وإن كانت تحمل معرفة معينة ، فإنها إذا جردت من أغطيتها الفنية ،
وطبقاتها اللفظية التي تحتمي بها فلن تكون أكثر من مجموعة فارغة من الألفاظ
الكاذبة ذات الرطانات الغامضة التي لا تخدم أي قضية ، ولا تفيد في أي تحليل .

ثانياً : ببساطة تامة ودون الدخول في ترسانات المصطلحات الغامضة التي
يحتمي بها هؤلاء التنويريون نجدهم يسعون إلى ما يلي :

أ- الاستمرار في جهود ضرب الصحوة الإسلامية ، والعمل على الحيلولة من
أن تجد لها عمقاً في القرى والمدن البعيدة عن العاصمة ، أو مراكز التنوير ! التي
يسيطرون عليها .

ب- الاستمرار في الجهود التي تسمح لهم بوجود المناخ الذي يعطي لهم
الشجاعة والحرية في التعرض للقرآن والسنة والتشريعات المنبثقة منهما ، إما
بالهجوم أو النقد مع القدرة على الحذف والتعديل والإضافة ، وإما في الأساس الذي
يستند إليه المجتمع المسلم ، أو في الكيان الثقافي والاجتماعي لهذا المجتمع ، انطلاقاً
من نجاحات الأئمة والأساتذة الذين أشرنا إليهم .

ج- أن تكون لهم دائماً اليد العليا في توجيه حياة الناس وحركة المجتمع وفق
تصوراتهم الفكرية ، وأن تكون عقولهم هي الحَكَم النهائي حتى في المسائل التي
حسمها الشرع .

د- الارتكاز في تحقيق هذه الأهداف على التحالف مع الفكر والمناهج الغربية
والفكر الناهض في دول أمريكا اللاتينية على وجه الخصوص ، وكذلك مختلف
الجهود والأنشطة المناوئة للإسلام بالداخل والخارج المحمية جميعها بالقوة المسلحة .

6- بقي أن نقول : إن التنويريين الجدد لم يقدموا أي جديد ، ولو قدموا جديداً
لما كان هناك إقدام على إعادة طبع ونشر جهود التنويريين القدامى لمواجهة الصحوة
الإسلامية ، إنه الدور نفسه لإمامهم الكبير (رفاعة الطهطاوي !) الذي حدده (بي .
جي . فاتكيوتس) بوضوح في قوله : (لقد كان الطهطاوي أول من قدم بطريقة
منظمة وذكية المبادئ العامة للمؤسسات السياسية الأوروبية ، قدم الطهطاوي أفكار
عصر التنوير والثورة الفرنسية وهما عماد هذه المؤسسات ، كان الطهطاوي معجباً
بعقلية التنوير الأوروبي ، ولهذا : فقد فتح الطريق لتابعيه للهجوم المكثف على كل
ما هو تقليدي ... أدخل الطهطاوي إلى قرائه وهو يصف الدستور الفرنسي
والمؤسسات السياسية الفرنسية فكرة (السلطة العلمانية) ومفهوم (القانون الوضعي)
المشتق من مصادر أخرى غير (المصادر الإلهية) .

متابعات

المرأة اليهودية

التحرير

كتب الأستاذ صالح السالم تعليقاً على مقالة نشرت في العدد (88) بعنوان :
(نكون أو لا نكون) وذكر أن الكاتب معجب بالعجوز اليهودية ، وصبرها وتضحيتها
وبذلها ، واستنكر ذلك جدّاً . وقال : (سبحان الله ! هذه كتابة مسلم يرى في اليهود
عدوه اللدود ، ومع ذلك : ينقل ذلك الثناء والإطراء للعجوز اليهودية ويعجب به ولا
يرد عليه ، مع أن ترك الرد عليه يجعل لصاحبه القبول في النفس ، ويؤدي إلى
عدم أخذ الحذر منه ، وإلى تليين العواطف نحوه ، أو إلى تعظيمه واحترامه ، وهو ،

خلاف ما بيننا وبين اليهود ، ثم : ما الداعي إلى أن نأخذ دروسنا من تصرفات هذه
اليهودية .. ؟ ! أليس في التاريخ الإسلامي وفي سلف الأمة من الدروس ما يربو
ويغطي على تصرفات هذه العجوز التي هي أشد الناس عداوة لنا ؟ !

ثم : هل ضاقت الأدلة على ضرورة الإيمان بالهدف إلا قول هذه العجوز
وتصرفاتها ، كأنه ليس في شرع محمد ما يدل على ذلك ، سبحان الله ! كأن الكاتب
لم يقرأ الآيات التي تنادي منذ أنزل القرآن بضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر الذي
هو هدف كل مسلم ، حتى إنه لم يجد إلا كلام هذه العجوز .. ! ..) .

وهيئة التحرير في المجلة تشكر الأستاذ على تواصله مع المجلة ، وعلى
غيرته ، وحرصه على النصح والتسديد .

ولكن يبدو أن الأمر التبس عليه ؛ فكاتب المقالة ليس معجباً باليهودية ، ولم
يرد الثناء والإطراء عليها ، لكنه أراد أن يبيّن أن إسرائيل لم تقم على الشعارات
الثورية أو الحرب الكلامية ، كما هو الحال عند الأحزاب العلمانية والقومية في
البلاد العربية ، وأن اليهود على الرغم من ضلالهم وباطلهم بذلوا لدينهم ، وحرصوا
على تحقيق آمالهم ، وتحملوا المشاق من أجل الوصول إلى وطن قومي لهم ،
واستغلوا تخلف المسلمين وتفرقهم وبعدهم عن دينهم وعبث الشعارات الثورية في
ديارهم .. ولهذا : ختم مقالته بقول الله (تعالى) : ﴿ إن تَكُونُوا تَألَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَألَمُونَ
كَمَا تَألَمُونَ ﴾ [النساء : 104] .

وكأن الكاتب يريد أن يقول للمسلمين : هؤلاء هم أهل الباطل ، ومع ذلك :
يفعلون ما يفعلون ، فأين دعاة العروبة والوطنية .. ؟ ! بل أين دعاة الحق ؟ ولِمَ لا
يتقون الله ويصبرون ويبذلون لدينهم وعقيدتهم ، وأن دين الله (تعالى) لا ينتصر
بالأحلام والأماني ، ولا بالعواطف الباردة ، بل بعظيم الصدق والإخلاص والتضحية
في سبيل الله (تعالى) .. وقديماً قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : (اللهم إني
أعوذ بك من جَلَد الفاجر وعجز التقي ..) .

نرجو أن نكون قد وضحنا مراد الكاتب وأزلنا اللبس .. ونتمنى من الأخ إعادة
التأمل في المقالة ، شاكرين له التواصل والتعاون على البر والتقوى .. وفق الله
الجميع لما يحبه ويرضاه .

الورقة الأخيرة

انتحار العلمانية

د . أحمد بن محمد العيسى

كيف يمكن تفسير ظاهرة (نصر حامد أبو زيد) الذي حكمت إحدى محاكم
القاهرة بردته عن الإسلام وتفريقه عن زوجته ؟ .
(أبو زيد) الذي يدرّس القرآن الكريم والسنة النبوية (! ! !) في كلية الآداب
بجامعة القاهرة ، يعتبر أن ما ورد في كتبه من أفكار إلحادية اجتهاداً يؤجر عليه ! ،
وذلك مثل قوله : إن ما جاء في القرآن الكريم عن الله (عز وجل) ، وعن الملائكة ،
والعرش ، والشياطين ، ومشاهد يوم القيامة : هي من الأساطير التي يجب أن
تتجاوزها أفهامنا في العصر الحديث لأنها بزعمه نزلت في عصر يحتاج إلى مثل
هذا السياق اللغوي لكي يفهمه الناس .

هناك فرضيتان لتفسير هذه الظاهرة :

الأولى : أن نعتبر هذه الحالة ظاهرة إلحادية فردية كان باعثها حب الظهور
وغرام الشهرة ، كما هو الحال عند (سلمان رشدي) و (تسليمه نسرين) ..
الثانية : أن نعتبرها مرحلة متطورة للعلمانية في العالم العربي ، ابتدأت منذ
عهد الرواد أمثال : (طه حسين) ، و (لطفي السيد) ، و (سلامة موسى) ..
وغيرهم ، ووصلت عبر مراحل ومراحل إلى (فرج فودة) ، و (غالي شكري) ، و (نصر
حامد أبو زيد) .. وغيرهم .. فتكون بذرة الشك التي بذرها (طه حسين) في كتابه
(في الشعر الجاهلي) الذي أعيد طبعه مؤخراً قد ترعرعت ووصلت إلى الحال التي
نقرؤها عند علمانيي عصرنا ..
وهكذا أصبحت حالة (أبو زيد) مؤشراً على تطور جديد للعلمانية ، بعد أن
أزاحت عن وجهها حجاب المصطلحات الفضفاضة ، ليظهر وجه الإلحاد البشع .. !
هاتان الفرضيتان تحتاجان إلى تأمل .. ولكن ، لعل ردود الفعل العلمانية على
حكم المحكمة تدل على أن الفرضية الثانية تعبر بشكل أكبر عن الواقع ، ومن ذلك

قول قائلهم : (إن الفضيلة الأصولية تدفع الجميع إلى الأقاصي ، وتجنباً لكارثة لن
تكون أقل من كارثة الاجتياح المغولي لكنها تأتي هذه المرة من الداخل تُستحسن
المسارعة في مراجعة كل شيء ، والاستعداد للتجرؤ على الينابيع التي يشرب
الأصوليون ماءهم منها ..) ! !

فهل يكون هذا شاهداً على انتحار العلمانية ؟ ! !

تمت بعون الله والحمد لله